عظمة "أبو حنيفة"

عظمة أبو حنيفة

تأليف: علاء إبراهيم الزناتي.

التصنيف: بحث ديني

تدقيق لغوي وإخراج فني وتصميم الغلاف
يوريكا لخدمات النشر

EUREKA

01288627690
eureka4publishing@gmail.com

بالتعاون مع
دار المثقفون العرب للنشر والتوزيع
الطبعة الأولى
رقم الإيداع: ٢٠١٩/٢٣٤٣٤
الترقيم الدولي: ٩٧٨-٩٧٧-٦٦٤٣-٨٦-٤

جميع الحقوق محفوظة ويحظر طبع أو تصوير أو تخزين أي جزء من الكتاب بأية وسيلة من وسائل تخزين المعلومات إلا بإذن كتابي صريح من الناشر

عظمة "أبو حنيفة"

علاء إبراهيم الزناتي

مقدمة

إن النعمان رمز من رموز التاريخ الاسلامي وأحد الأركان الثابتة التي استندت عليها علوم الشريعة وتداول الناس فتواه ليدونوا حلول مسائل لم تقع فكان أمره في الفقه عجيب كشخصه فلاتخرج من الجلوس جانبه إلا بالدهشة من عقل راجح وفكر صائب .تفاخر به أهل الكوفة علي أهل البصرة وانتصر بفقهه أهل العراق على أهل المدينة فكانت مدرسته جامعة للفضائل ناقلة للفقه الجامع وكرس ماله لخدمة العلم فكرس العلم الطيب لتجميل ذكره. فالعنبر بالسحق يبدي لونه والزيت بعد العصر يعلو الماء.

أرهقتهم الدنيا بالقوادح وعفرت المناخر فغمتهم بالسغب وحاصرتهم بالوني فماأظهروا لها الا التضعضع على أجساد من الفولاذ وعزيمة حديدا واصرارا مديدا. كان أبويوسف وأصحابه آرام عند النعمان وكانوا بالنسبة له وليحة يعتمد عليهم في ترسيخ علمه وتثبيت علو الأمة، تراهم كالشاهين في سرعة التعلم وقوة اقتناص الصيد، كالحر في التحمل والصبر إذا مااشتدت التقلبات وتقلبت الخيتعور فأبدت سرائرها وأخفت نواميسها فلاتدري الى أين تدور ؟و لا تدري دورانها متى ينتهي ؟ تراهم صقور تتباهى بهم العزة.

جعلوا العلم فريسة والحلقة عشة فلايقبل الضعيف بينهم، الضعيف بينهم يفنى اذا مافقد قوة اقتناص العلم، دخل عليهم : محمد بن الحسن الشيباني. فماقبلوه حتى أتم حفظ القرآن، فكثيرا ما أرهقوا النعمان بطول مناظراتهم وكثرة المنافسة بينهم .

كان النعمان إذا وثر الأرض بقدمه تشذو منه روائح العظمة وترجبه الهيبة، خفاف اذا حنف، غطريف اذا جالس، أسطون اذا طارح، فريد اذا تكلم، بازخ اذا أبدى رأيه، ورأيه يسمق فوق الرؤوس ليرأس الرؤوساء، محير للعقول وتزيغ له الألباب، دلص اذا ذهب، متبتل اذا عبد، عصمة للضعفاء وثمال للفقراء ومحوى طالبي العلم وجائفة لكل ملمة، علم العلماء في حضرته كالسملة في القليب، خزاز يجيد الفقه، ويجيد وشج المسائل باستاج الكتاب والسنة، ماعاهدته خطلة في فعل ولا كذبة في قول فحير مقل العيون بعجائبه، جذل للبدع صارم للأهواء مفحم لأصحاب القلوب المألوسة، دهُري تراه صمصام على كل دهَري، كاشف كل مغدفة، وصارم أوصال الفتنة، وباتر أشلاء الجهل، وقد سرابيل الفرقة، وقدد جسد المارقين، احتجن الأثال بعقله، وغرق في عين بحر الفكر حتى يتجرع تجرع من كانت به غصة، لم يخشى شفيف صفاق البطن ولا تشذب اللحم ولا آلام الشرسوف واضمحلال العكن.

عاش فقيرا مع كثرة ماله، صامتا مع عظم مقاله ،لا يتكلم كثيرا فاتهمه عامة الناس بالزهو حاله كحال باب العلم الامام : علي بن أبي طالب. قبله فهي شريعة أصحاب الفكر اذ يقال كلما اكتمل العقل نقص الكلام فيجلس اليك عامة الناس يتحدثون بتفاهات الأمور فتجلس معهم ساعات كاملة لتخرج من عندهم أقل عقلًا مماجالستهم به فلو إنك جالست العامة مفكرًا لخرجت من عندهم مرهق الفكر.

فالعقل العقل هو الأول فيك ولا شيء بعده، وهو الآخر بعدك ولا شيء قبله، فالعقل هو الآلة التي تنتج النجاح، وهو المجمع الذي يستجمع قوى الخلق، فالعقل هو الفضيلة التي يعطيها الله لمن يشاء فشاء لأبي حنيفة منها النصيب الأكبر

يقول عنه محمد بن عبدالله الأنصاري:

"كان أبوحنيفة يتبين عقله في منطقه ومشيه ومدخله ومخرجه"

فلو إن عابدًا عبد الله مائة سنة يسأله من النعم لما بلغ النعمان في عظيم ماأعطاه الله من نعم وما أنعم عليه من أفضال.

فالناس يسألون الله الحكمة فجعل الله النعمان لأهل القرن الثاني الهجري يتعلمون من تصرفاته التي لا تنبع إلا من عقل النعمان، والناس يسألون الله المال فجعل الله النعمان هو البنك الدولي الذي يتحكم في قيام دول وإسقاط أخرى كما سنوضح.

والناس يسألون الله مال لا ينقص من صدقة فكان النعمان هو المؤسسة الخيرية التي لا تتوقف عن مد يد العون للفقراء، والعلماء يسألون الله المساعدة ليساعدوا طلبة العلم فكان النعمان لعلماء القرن الثاني الهجري هو الجامعة الأزهر التي تحتضن كل من يرد العلم من كل حدب وصوب.

وبكل هذه النعم التي اختصها الله للنعمان زاد حساده حاله كحال كل نخلة مرتفعة لا تجد المفر من هؤلاء الذين يكرهون كل ماهو مرتفع فعوضًا عن محاولة العلو للوصول إليها ينحتون في قاعها.

يقول وكيع : "دخلت على أبي حنيفة مطرقًا متفكرًا فرفع رأسه وأنشأ يقول :

إن يحسدوني فاني غير لائمهم قبلي من الناس أهل الفضل قد حسدوا

فدام لي ولهم ما بي وما بهم ومات أكثرنا غيظًا بما يجد

وقال عنه الإمام الشافعي:

لقد زان البلاد ومن عليها إمام المسلمين أبوحنيفة

بأحكام وآثار وفقه كآيات الزبورعلي الصحيفة

فما بالمشرقين له نظير ولا بالمغربين ولا بكوفة

فرحمة ربنا أبدًا عليه مدى الأيام ماقرئت صحيفة

صفاته

كان أبو حنيفة طويل ترتفع معه درجات الهيبة وعظيم الطول لتتعاظم مع طوله العظمة فترتفع رأسه عن غيره. إذا ما جاورهم وقوفاً كما أرتفع عقله عن غيره إذا ما فرد جناحى الحكمة ليطير حتى يبلغ العنان بينما يبقى الآخرين دونه.

أما وزنه يزيد على الوسط (ما بين النحيف والثمين) بقليل فكاد أن يكون متناسق، تعلووجهه بعض سمرة، لحيته في حجم قبضة اليد[1].

روى أنه ذات يوم رأى على بعض جلسائه ثياباً رثة، فأمره أن ينتظر، حتى تفرق المجلس وبقى وحده. فقال له ارفع المصلى، وخذ ما تحته، فرفع الرجل المصلى، فكان تحته ألف درهم فقال له: خذ هذه الدراهم، فغير بها من حالك.

فقال الرجل: إنى موسر، وأنا في نعمة، ولست احتاج إليها

فقال له : أما بلغك الحديث

---

(١) ذكر الذهبي في كتابه " سير اعلام النبلاء" ٥/٢٢٧، مكتبة الصف. عن أبي يوسف قال: " كان أبو حنيفة ربعة، من أحسن الناس صورة، وأبلغهم نطقاً، واعذبهم نغمة، وأبينهم عما في نفسه". وكذلك ذكر الذهبي عن حماد بن أبي حنيفة قال: " كان أبي جميلاً، تعلوه سمرة، حسن الهيئة، كثير التعطر " لكن أغلب المصادر أكدت لنا انه كان طويل القامة يرتدي قلنسوة سوداء طويلة.

" إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده" فينبغي لك ان تغير حالك وحتى لا يغتم بك صديق[١].

إنها رواية ترينا مدى عظمة هذا الرجل، فقد كان رجلاً يحب الجمال والجمال بعينه يتبلص رضاه[٢]، فقد كان أنيقاً يحب رؤية جمال جوهره في مظهر كل من حوله، فإن رجل يتصدق بألف درهم حين كان ستون رطل من لحم الغنم بدرهم لجواد تعدى الجود عنده مبالغ الوصف، لكن الأعجب أن أبا حنيفة كان لا يعرف هذا الرجل وإلا لكان علم بحاله وما انتظر قوله : - "إنى موسر".

وقد عبر لنا خليفته أبي يوسف القاضي فقال عنه يصف أناقته:-

" كان يتعمد شسعه، حتى لم ير منقطع الشسع" [٣].

فقد كان لباساً فقدر ثمن رداؤه بأربعمائة درهم تشذى[٤] المروخ[٥] منه حتى تصوح[٦] الأرض تحته، فقد كان يتحرى الجمال كما يتحرى ألغاز الفهم من

---

(١) ذكره ابن حجر الهيتمي في كتابه " الخيرات الحسان في مناقب الإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان" ص ٤٢.

(٢) تبلص الشئ أى: طلبه فى خفاء.

(٣) ذكره ابن حجر الهيتمي في كتابه " الخيرات الحسان في مناقب الإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان" ص ٤٢، والشسع : السير الذي بمسك النعل بأصابع القدم.

(٤) شذى: أى عظمت رائحته.

(٥) المروخ : العطر.

(٦) تصوح: أي تتصدع.

بين النصوص كما هوحال ابن عباس الذي كان واحد من بين الأطراف التى تنتهي إليه بينما تبدأ منها سلاسل العلم[1].

يمشى على الأرض كأنه ملك يباهي الناس بقدره، وتتباهى القدرة بجمال منظره فقد كان أبوحنيفة مثالياً في تصرفاته، عبقرياً في استنتاجاته يرتدي الكمال ثوباً بينما يتكلم بالجمال منطقاً، يرتدي الفخم من الثياب لتزداد الثياب فخامة بملامسة جسده، فكما أن الزهد نعمة فإن جمال المظهر فضيلة، فقد كان عمر بن عبد العزيز.

صاحب مظهر خاص قبل أن تدركه الخلافة حتى قيل إنه إذا مر بشارع فإن المارين بعده يعرفونه من رائحة العطر ثم انقلب الحال بعدما انتقل أمر

---

(١) يقصد بالأطراف التي تنتهي إليه كونه أحد الصحابة الذين آلت علومهم إلى أبي حنيفة كحال عمر بن الخطاب، وعبد الله بن مسعود ليبدأ أبو حنيفة سلسلة علومه من حيث انتهى إليه علم هؤلاء . وملحوظ وجود تشابه كبير بين الاستنباطات العبقرية لابن عباس والمقاييس الرائعة لأبي حنيفة. ومن ذلك روى إن ملك الروم وجه بقارورة إلى معاوية بن أبي سفيان وقال:- ابعث إلى فيها من كل شئ فبعث معاوية إلى ابن عباس وأخبره بما يطلبه ملك الروم فقال: تملأ القارورة بالماء. فلما وردت القارورة على ملك الروم قال:- لله أبوه ماأدهاه . فقيل لابن عباس: كيف اخترت ذلك؟

قال: لقول الله ﷻ ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ﴾ [الأنبياء: ٣٠]

المسلمين من عبد الملك بن مروان وابناه إليه، فكان مثالاً في الزهد حتى انه مرض ذات مرة فلم يجدوا له إلا ثوباً واحداً وقد حيص حتى بلى[١].

فبعض الناس يتخذون الزهد سراط يمرون عبره إلى الجنة لكن البعض الآخر يكتفي بزهد القلب ويتمسك بجمال الشكل، فالناس طبائع قد قدر القادر خلقهم بمقدرته.

فإنك قد ترى رجلاً يرتدى أفخم الثياب حتى أن الفخامة تنثعب من جسده لتضفي على تلك الثياب الباهظة الثمن فخامة وتزين الفخامة بالعظمة، فالثياب مهما كانت عظمتها حتى ولوكانت تساوى أربعمائة درهم في وقت كان الدرهم يعادل ثمن كبش ما أضافت شيئاً إلى صاحبها ما لم تكن فخامتها جزءاً من عظمته وليس عظمته جزءاً من فخامتها.

فقد سخر القوم من هشام بن عبد الملك رغم عظم مظهره حتى أن الفرزدق قال فيه:

وتقلب رأس فوق رأس وعين لها حولاء بات عيوبها[٢]

---

(١) ذكر السيوطي في كتابه " تاريخ الخلفاء" ص ١٨٦ إن محمد بن مسلمة قال:- " دخلت على عمر بن عبد العزيز أعوده في مرضه فإذا عليه قميص وسخ، فقلت لفاطمة بنت عبد الملك، ألا تغسلون قميصه؟ قال: والله ماله قميص غيره.

(٢) ذكرها الشعراوي في كتابه " أنا من سلالة آل البيت" وكذلك إسماعيل الجاويش في كتابه " من حوارات الأذكياء العرب".

بينما هيبة: هارون الرشيد. كانت تطغى على أعين الناظرين إليه وتطمو بنفسها على أنفسهم[١]، فالثياب الفاخرة ما كانت لتجهل إمام المسلمين الأعظم والعظمة إذا لم تزينها النظافة فلن ينظر إليها أحد، فكل الباحثين عن المثالية يحبون الجمال، وحب الجمال جزء من الكمال فالعيون لا تنظر إلا لما يثيرها، والإثارة لا تشتعل إلا باشتعال الجمال.

لكل شخص من مهنته نصيب، فأبوحنيفة تاجر يحب إظهار جمال بضاعته بعرض أروعها، وكذلك كان شخصه حيث يبرز أروع مظهر ليوضح تلك الخليقة داخله التى تبرز تميزه.

أما الصفة الثانية التى تميز بها أبوحنيفة فهى الذكاء والفطنة، فقد منَّ الله على أبي حنيفة بعقل يتسع لكل كبيرة وصغيرة[٢].

---

(١) يقول الجاحظ:

" اجتمع للرشيد ما لم يجتمع لغيره: وزراء برامكة، وقاضيه أبو يوسف- رحمه الله، وشاعره مروان بن أبي حفصة، ونديمه العباس ين محمد عن ابيه، وحاجبه الفضل بن الربيع، انبه الناس وأعظمهم، ومغنيه إبراهيم الموصلي، وزوجته زبيدة . ذكره السيوطي في " تاريخ الخلفاء" ص ٢٢٩.

(٢) ذكر ابن حجر الهيتمي في كتابه " الخيرات الحسان في مناقب الإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان"، مطبعة السعادة ص ٤٦. عن على بن عاصم قال عنه:- لو وزن عقل أبي حنيفة بعقل نصف أهل الأرض لرجح بهم".

فقد جاء في الانتقاء: عن أبى حنيفة قلت لعطاء بن أبى رباح:- ما تقول في قول الله ﷻ: ﴿ وَءَاتَيْنَـٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ ﴾ [الأنبياء: ٨٤].

قال عطاء: آتاه أهله ومثل أهله.

قلت: أيجوز أن يلحق بالرجل ما ليس منه؟

فقال: وكيف يكون القول فيه عندك؟

فقلت: يا أبا محمد أجور أهله، وأجوراً مثل أجورهم.

فقال: هو كذلك، والله أعلم[١].

فإن عطاء بن أبى رباح توفى عام ١١٤هـ، مما يعني أن أبا حنيفة لم يتخط مرحلة كونه تلميذاً عندما حدثت تلك المناظرة بينه وبين عطاء.

فالعلم يتلقى بمرحلتين:

المرحلة الأولى: الحفظ، كحفظ الأحاديث والروايات وأقوال الأئمة في المسائل[٢].

---

(١) ذكره ابن حجر الهيتمي في كتابه " الخيرات الحسان في مناقب الإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان" مطبعة السعادة ص ٥٣.

(٢) ذكره ابن حجر الهيتمي في كتابه " الخيرات الحسان في مناقب الإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان" مطبعة السعادة ص ٦٩ عن أبي يوسف قال: " ما رأيت أحداً أعلم بتفسير الحديث ومواضع النكت التى فيه من الفقه من أبي حنيفة".

والمرحلة الثانية: الفهم، كحسن فهم النصوص وإتقان تفسيرها وسداد إخراج الفتوى بمقتضاها، فإن الأعمش تعجب عندما سمع من أبي حنيفة تفسير أحاديث كان قد رواها بنفسه من قبل[1].

فعطاء بلاشك كان بحر علم تهتز له العقول وتتحير له الألباب فكان يكن من الأحاديث والتفاسير والروايات في صدره ما تعجز عن حمله الإبل لكن أبا حنيفة كان يكن في عقله من الفهم والفطنة ما تموج به عروق العلم في القلب، فقد كان يعلوبعقله فوق الآفاق، وقد تفوق أبوحنيفة على الجميع بتلك الصفة التى جعلته في الطليعة دون أن يدركه الآخرون.

فإن أبا حنيفة لم يكن سوى غلام عندما صحب الشعبي فسمعه يقول: " لا نذر في معصية ولا كفارة فيه ".

فرد عليه أبوحنيفة فقال:-

"بل فيه الكفارة لأن الله سبحانه وتعالى جعل في الظهار الكفارة بعد أن جعله معصية فقال: ﴿ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا ﴾ [المجادلة: ٢]، وقد أوجب فيه الكفارة.

---

(١) ذكر الذهبي في كتابه " مناقب الإمام أبي حنيفة وصاحبيه" ص ٣٤. إن أبا حنيفة كان عند الأعمش فسئل عن مسائل، فقال لأبي حنيفة: ما تقول فيها؟ فأجابه، فقال له: من أين لك هذا ؟ قال:- من أحاديثك التى رويتها عنك، وسرد له عدة أحاديث بطرقها، قال الأعمش: حسبك ما حدثت به في مائة يوم تحدثني به في ساعة واحدة ما علمت انك تعمل بهذه الأحاديث، يا معشر الفقهاء أنتم الأطباء ونحن الصيادلة.

فإن مسألة كهذه لا تأتي إلا بالفهم، ودقة فهم كهذه لا تأتى إلا من هام عقل رجل كأبى حنيفة.

فقد روى إن قتادة السدوسي. نزل في دار أبى بردة عامر بن أبى موسى الأشعرى وكانت داراً كبيرة، وقتاده: كان رجلاً عالماً بالفقه والتاريخ واللغة والتفسير.

فقال قتادة:- والله الذى لا إله إلا هو لا يسألنى أحد عن الحلال والحرام إلا أجبته.

فقال له أبوحنيفة: يا أبا الخطاب ماذا تقول في رجل غاب عن أهله أعوام فظنت أمرأته أن زوجها مات فتزوجت ثم رجع زوجها الاول، ما تقول في صداقها؟ ثم إن أبا حنيفة التفت إلى من حوله فقال:- لإن حدث بحديثاً كذب، ولإن قال برأي نفسه ليخطئن.

ففكر قتادة ثم رفع رأسه صوب أبي حنيفة قائلاً:- ويحك، أوقعت هذه المسألة؟

قال أبوحنيفة: لا

قال قتادة: لما تسألنى عن ما لم يقع

قال أبوحنيفة: إننا نستعد للبلاء قبل نزوله، فإذا ما وقع عرفنا الدخول فيه والخروج منه.

فقال قتادة: والله لا أحدثكم بشئ من الحلال والحرام، سلوني عن التفسير؟

فقال أبوحنيفة: يا أبا الخطاب، ما تقول في قوله تعالى:

﴿ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن يَرۡتَدَّ إِلَيۡكَ طَرۡفُكَۚ ﴾ [النمل: ٤٠]

فقال قتادة: نعم، هذا آصف بن برخيا. كاتب سليمان بن داوود حيث أنه كان يعرف اسم الله الأعظم.

فقال أبوحنيفة: هل كان سليمان يعرف اسم الله الأعظم؟

قال: لا

قال أبوحنيفة: أيجوز أن يكون في زمن النبي من هوأعلم من النبى؟

ثم قال قتادة: لا أحدثكم بشئ عن التفسير، سلوني عما اختلفت فيه العلماء؟

فقال أبوحنيفة: يا أبا الخطاب، أمؤمن أنت؟

فقال قتادة: أرجوأن أكون مؤمناً

قال أبوحنيفة: لما قلت أرجو؟

قال قتادة: قول إبراهيم عليه السلام في القرآن"-

﴿ وَٱلَّذِىٓ أَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوۡمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾ ﴾ [الشعراء: ٨٢]

قال أبوحنيفة: أما قلت كما قال إبراهيم عليه السلام أولم تؤمن؟ قال: بلى.

فلم يملك قتادة سوى أنه دخل داره وأغلق عليه بابه[١].

فقد كان قتادة. وعاء مفعم بالأحاديث والقرآن والروايات وقد جاء إلى الكوفة حاملاً من كل بحر إناء لكن أبا حنيفة غلبه بالفهم وفحمه بقوة العقل الذى

---

(١) ذكره ابن حجر الهيتمي في كتابه " الخيرات الحسان في مناقب الإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان" مطبعة السعادة ص٥٢.

يدرك بلا جهل، ويعلم بلا فوات على الرغم أن عمره وقتها لم يتجاوز سبعة وثلاثين عاماً [١].

فبالعقل أنتصر فقه أبى حنيفة على سائر الفقهاء، وبقوة العقل انتصر بقوة وقهر بسخاء، فإن أبا حنيفة كعادته يكسب مناظراته بالفهم ويغلب خصومه بالعقل، فإذا كان الصراع الأبدي في الحياة هو صراع القوة والعقل فيجب القول أن الصراع الأبدي بين العلماء هو صراع المعرفة والفهم ولا غروفي ذلك، فإن الخوارج اشتهروا بقراءة القرآن وأتقنوا قراءاته وسبقهم ابن عباس بالفهم حين ناظرهم في مسألة جواز الحكمين التى اضطر لها الإمام: على. يوم صفين [٢].

فالعقول درجات والفهم خطوات، فنحن بعد: محيي الدين بن عربى. بمئات السنين نقر بعظمته ونخضع لعلومه لكننا ما زلنا لا نفهم نظريته

---

(١) ذكره ابن كثير في البداية والنهاية إن قتادة السدوسي توفى عام ١١٧ هـ في حين ان ميلاد أبي حنيفة كان عام ٨٠ هـ بما يعني أن عمر أبي حنيفة وقت وفاته كان ٣٧ عام.

(٢) ذكر ابن كثير في البداية والنهاية.

عن مسروق عن عبد الله قال: قال لنا سول الله ﷺ :-

" إن رحى الإسلام ستزول بعد خمس وثلاثين سنة فإن يصطلحوا فيما بينهم يأكلوا الدنيا سبعين عاماً رغداً، وإن يقتتلوا يركبوا سنن من كان قبلهم"؟

فقال عمر لابن عباس:- كيف يختلفون وإلههم واحد وقبلتهم واحدة وملتهم واحدة؟ فقال ابن عباس:- إنه سيجئ قوم لا يفهمون القرآن كما نفهمه، فيختلفون فيه فإذا اختلفوا فيه اقتتلوا.

في الحلول، فمن الناس من كف لسانه سواء عن الكلام فيها أو عن سبب قول: ابن عربى فيها والبعض الآخر اختار أن يستغل الأمر ليخوض فى شخص: محيي الدين بن عربي لكن خلاصة الأمر بأنه من المؤكد أن": ابن عربي. الذى بلغ العلوم بجميع لجتها[1] لم تشتق نفسه لدخول النار فاختار أن يغضب ربه بنظرية كتلك، لكنه تكلم عن أمر يفوق عقولنا ويتخطى منطقنا، فقد قال الشعبى يوماً:

"من علم العلم لغير أهله فقد أثم"

فمن الطبيعى أن تلفظ العقول ما لا تدرك لكن من الجنون أن نتكلم في شخص عالم كمحيي الدين بن عربى.

فنظرية تفاوت العقول ليست حديثة وإنما كانت بين الصحابة أنفسهم، فعندما نزلت سورة " النصر" بكى أبوبكر بينما تعجب الصحابة من سبب بكائه، لكنه علم ما لم يعلمه الآخرون وهو أن سبب نزول هذه السورة هو قرب أجل النبىﷺ.

---

(١) لُجة:- هى معظم الشئ، والمقصود بها: معظم البحار. في قوله تعالى: ﴿حَسِبَتْهُ لُجَّةً﴾ [النمل: ٤٤]

.

وعندما نادى: عمر. في المدينة على: سارية. في الشام تعجب الناس جميعاً ولم يفهمه أحد بإستثناء الإمام: على بن أبي طالب رضي الله عنه [1] فلو لم تكن العقول درجات لما قال النبي ﷺ:

" حدثوا الناس بما يعرفون، أتحبون أن يكذب الله ورسوله" [2].

---

(١) أخرج ابن مردويه من طريق ميمون بن مهران عن ابن عمر قال:- كان عمر يخطب يوم الجمعة، فعرض في خطبته أن قال: يا سارية الجبل، من استرعى الذئب ظلم، فالتفت الناس بعضهم لبعض، فقال لهم على:- ليخرجن مما قال فلما فرغ سألوه فقال: وقع في خلدي أن المشركن هزموا إخواننا، وإنهم يمرون بجبل، فإن عدلوا إليه قاتلوا من وجه واحد، وإن جاوزوا هلكوا فخرج مني ما تزعمون أنكم سمعتموه.

قال: فجاء البشير بعد شهر فذكر أنهم سمعوا صوت عمر في ذلك اليوم، فعدلنا إلى الجبل ففتح الله علينا.

السيوطي في كتابه " تاريخ الخلفاء " فصل خلافة عمر بن الخطاب.

(٢) البخاري في صحيحه كتاب العلم باب من خص بالعلم قوماً دون كراهية أن لا يفهموا ص ١٢٧.

اسمه

أبوحنيفة ذاك الكنز الذى اكتنز[١] عسجد[٢] العلم في حضرته فاستتر خلف علمه أهل السنة فى مواجهة ولوغ [٣] الأعداء.

فقد كان فارسي الأصل ولد في عصر ساد العرب فيه الموالى بالسلطة وساد الموالى فيه العرب بالعلم، فكان منهم: عطاء بن أبى رباح[٤] ونافع مولى ابن عمر[٥] وطاووس بن كيسان[٦]

---

(١) اكتنز الشئ أي : جمعه.

(٢) عسجد: الذهب. يقول عمر الخيام في رباعياته .

فلست يا هذا الغبي عسجداً حتى توارى في الثرى وتخرجا

(٣) ولوغ: أي مكائد.

(٤) عطاء بن أبي رباح الفهري: ادرك مائتي صحابي وهو أحد كبار التابعين يصفونه إنه كان أسود أعور أفطس أشل أعرج. كان منادي بني أمية في عهد عبد الملك بن مراون ينادي:- " لا يفتي الناس في الحج إلا عطاء بن أبي رباح " توفى سنة ١١٤ هـ

(٥) نافع مولى ابن عمر:- أصله من نيسابور، روى عن مولاه عبد الله بن عمر، ورافع بن خديج، وعائشة. كان من الثقات النبلاء. يقول البخارى: أصح الأسانيد مالك عن نافع عن ابن عمر، أرسله عمر بن عبد العزيز إلى مصر ليعلم الناس السنن.

(٦) طاووس بن كيسان:- كان طاووس مولى بحير بن ريسان الحميري توفي بمكة سنة ١٠٦ هـ.

وميمون بن مهران [١] ومكحول [٢] والضحاك بن مزاحم [٣] والحسن البصرى [٤].

روى أن هشام بن عبد الملك سأل جليسه: هل لك علم بعلماء الأمصار؟

قال: بلى يا أمير المؤمنين

قال: فمن فقيه أهل المدينة؟

قال: نافع مولى ابن عمر

---

(١) ميمون بن مهران: هو فقيه الجزيرة سـُـأل يوماً علي أفضل عندك أم أبو بكر وعمر؟ فارتعد حتى سقطت عصاه من يده، ثم قال: " ما كنت أظن أن أبقى إلى زمان يعدل بهما، لله درهما كانا رأس الإسلام. أخرجه أبو نعيم

(٢) مكحول الشامي: إمام أهل الشام في زمانه، يرجع أصله إلى اصول نوبية، يقول الزهري: العلماء أربعة، سعيد بن المسيب بالحجاز، والحسن البصري بالبصرة، والشعبي بالكوفة، ومكحول بالشام. يقول محمد بن إسحاق: سمعت مكحول يقول: طفت الأرض كلها في طلب العلم. توفي مكحول سنة ١١٣ هـ

(٣) الضحاك بن مزاحم: يقال له: ابو محمد الخرساني، تابعي جليل روى عن أنس وابن عباس وابن عمر، قال عنه الثوري: خذوا التفسير عن أربعة: مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير والضحاك. توفي سنة ١٠٢ هـ

(٤) الحسن البصري:- هو الحسن بن أبي الحسن، كانت أمه مولاة لأم سلمة زوج النبي ﷺ، ولد الحسن بالمدينة سنة ٢١ هـ. هو سيد التابعين قدم مكة فأجلسوه على سرير واجتمع الناس إليه فحدثهم، وكان فيمن أتاه مجاهد وعطاء وطاووس وعمرو بن شعيب أو قال بعضهم: لم نر مثل هذا قط.

قال: فمن فقيه أهل مكة؟

قال: عطاء بن أبى رباح

قال: مولى أم عربي

قال: مولى

قال: فمن فقيه أهل اليمن؟

قال: طاووس بن كيسان

قال: مولى أم عربى؟

قال: مولى

قال: فمن فقيه أهل اليمامة؟

قال: يحيى بن أبي كثير[1]

قال: مولى أم عربى؟

قال: مولى

قال: فمن فقيه الشام؟

قال: مكحول

قال: مولى أم عربى؟

قال: مولى

قال: فمن فقيه أهل الجزيرة؟

قال: ميمون بن مهران

---

(١) يحيى بن أبي كثير: قال عنه شعبة:- يحيى بن أبي كثير أحسن حديثاً من الزهري، وقال عنه ابن حنبل": إذا خالفه الزهري فالقول قول يحيى . توفى سنة ١٢٩ هـ

قال: مولى أم عربى؟
قال: مولى
قال: فمن فقيه أهل خراسان؟
قال: الضحاك بن مزاحم
قال: مولى أم عربى؟
قال: مولى
قال: فمن فقيه أهل البصرة؟
قال: الحسن وابن سيرين [1]

---

(١) ابن سيرين: اشتهر بتعبير الرؤيا، ومن ذلك أنه كانت بينه وبين الحسن البصري هجرة، فكان إذا ذكر ابن سيرين عند الحسن البصري قال:- دعونا من ذكر الحاكة. حيث كان بعض أهل ابن سيرين حاكة فرأى الحسن في منامه كأنه عريان، وهو قائم على مزبلة يضرب بالعود فأصبح مهموماً برؤياه، فقال لبعض أصحابه: امض إلى ابن سيرين، فقص عليه رؤياى على أنك أنت رأيتها فدخل على ابن سيرين وذكر له الرؤيا فقال ابن سيرين : قل لمن رأى هذه الرؤيا ، لا تسأل الحاكة عن مثل هذا. فأخبر الرجل الحسن بمقالته، فعظم لديه، وقال: قوموا بنا إليه، فلما رآه ابن سيرين، قام إليه وتصافحا وسلم كل منهما على صاحبه، وجلسا يتعاتبان ، فقال الحسن: دعنا من هذا، فقد شغلت الرؤيا قلبي فقال ابن سيرين: لا تشغل قلبك، فإن العري عري من الدنيا، ليس عليك منها علقة، وأما المزبلة فهي الدنيا، وقد انكشف لك أحوالها، فأنت تراها كما هي في ذاتها، وأما ضربك بالعود، فإنه الحكمة التى تتكلم بها وينتفع بها الناس. فقال له الحسن: فمن أين لك أنى رأيت هذه الرؤيا؟ قال ابن سيرين: لما قصصها علي فكرت، فلم أر أحداً يصلح أن يكون رآها غيرك.

قال: موليان أم عربيان؟

قال: موليان

قال: فمن فقيه أهل الكوفة؟

قال: إبراهيم النخعى [1]

قال: مولى أم عربى؟

قال: لا بل عربى

قال: كادت نفسى تخرج ولا تقول واحد عربى!

اتسم: هشام بن عبد الملك. بالعصبية القبلية كعادة ملوك بنى أمية منذ حكم: معاوية بن أبى سفيان. وحتى آخر ملوكها: مروان بن محمد، ولم تشذ تلك القاعدة إلا في عصر الخليفة العادل: عمر بن عبد العزيز. حيث بلغه أن بعض الناس أنفوا أن تكون الفتيا للموالي فصاح فيهم: " ما ذنبى إن كانت الموالى تسمو بأنفسهم صعداً وأنتم لا تسمون؟ "[2]

وعلى أثر ذلك الإضطهاد دعم الفرس الدولة العباسية فيما بعد، فالصراع بين السلطة والعلم قائم ما بقى في العمر بقية كما سنوضح فيما بعد.

---

(١) إبراهيم النخعي: هو إبراهيم بن يزيد بن الأسود، يكنى أبا عمران. عن عبد الملك بن أبي سليمان قال: رأيت سعيد بن جبير يُستفتى فيقول: اتستفتوني وفيكم إبراهيم؟ توفى عام ٧٦ هـ.

(٢) ذكره المقريزي في كتابه " المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار".

فمن هذا المنبع الذى أفغم[١] بالعلماء خرج أبوحنيفة، فأبوه: ثابت بن زوطي الفارسى حيث أن جده من أهل كابل وقد أسر عند فتح العرب لهذه البلاد، قال عمر بن حماد بن أبي حنيفة عن نسبه: استرق لبعض بنى تيم بن ثعلبة ثم أعتق فكان ولاؤه لهذه القبيلة[٢]، وهذا خلاف ما قاله إسماعيل بن حماد بن أبى حنيفة: " إن أبا حنيفة هوالنعمان بن ثابت بن المرزبان،المرزبان هوالرئيس من أبناء فارس الأحرار" [٣].

وقد حاول بعض المتعصبين من العرب الذين كرهوا أن ينفرد الفرس بنسب أبى حنيفة دونهم أن ينسبوه إلى العرب ويدعونه إليهم فقالوا: إنه من بنى تميم

أما عن كنية: أبى حنيفة فقد جاءت من: حَنَفَ أى: مال وانضم والمقصود أنه: حنف إلى الدين فهى كناية عن شدة الورع، لذلك كنّ بأبي حنيفة.

---

(١) أفغم: بالشئ أى: أمتلأ .

(٢) الذهبي في كتابه " سير أعلام النبلاء" ، الجزء الخامس ص ٢٢٣، مكتبة الصفا، ط١ – كذلك ذكر ابن حجر الهيتمي في مناقبه ص ٢١.

(٣) الذهبي في كتابه" سير أعلام النبلاء" ، الجزء الخامس ، ص ٢٢٤، مكتبة الصفا، ط١. كما ذكر ابن حجر الهيتمي أيضاً في كتابه " الخيرات الحسان في مناقب الإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان" ص ٢٢ ، مطبعة السعادة.

ولادته

الحياة قاسية تتحطم بين عجلاتها الأحلام وتنكسر بدورانها الآمال، فلا يصمد بين فكيها إلا أهل البأس الذين لا يلينون ولا يعرف لهم الدهر لين ولا يعهد بهم انكسار، هؤلاء هم أهل العظمة حيث من قصصهم تروى الأساطير ومن سيرتهم تحكى الروايات، فلا اللين يعصرهم ولا الصلابة تكسرهم.

قوى لا يدركها فتور وعزيمة لاتصدها عوائق وقفزات لا تمنعها مصدات.

هؤلاء هم الذين نطلق عليهم العظماء بينما يطلق الدهر عليهم أهل الخلود.

فالزمان يفنى وتفنى آثاره إلا من ذكر هؤلاء الذين أجبرونا على ذكر أسمائهم وأرغمونا على التخلق بصفاتهم، فالإبل في الصبر درجات والنخيل في الصمود رتب، فلا الناس فى نحيزتهم[١] متساوون ولا الخلائق في الصفات موحدون فليس كل من تجلبب بالقوى انملص[٢] من أمراس[٣] الحياة ونجا من الزخمة[٤] السوارة[٥] التي تهز[٦] أصحاب المبادئ وتلدغ أهل القيم.

---

(١) النحيزة: الطبيعة.

(٢) انملص: الشئ أي : هرب.

(٣) امراس الحياة: أي شدتها.

(٤) الزخمة: الزحمة.

(٥) السوارة: الوثابة.

(٦) تلهز: تلدغ.

فقد ولد أبوحنيفة وواصل بن عطاء. فى عام واحد، فقد شهد عام ٨٠هـ ولادة طفل علم الرجال وسقوط رأس أتسعت لأمة وظهور نجم عالم جلس تحت قدميه الجهابذة، إنه عام ولادة أبى حنيفة[١]. كذلك فى نفس العام ولد: واصل بن عطاء، لكن شتان ما بينهما فإن أبا حنيفة رأس العلم عند أهل السنة والجماعة، وواصل بن عطاء رأس العلم عند المعتزلة والحرب بين المذهبين معروفة وقد استنزفت جميع حملة العلم وقتها حتى بقى الإمام: أحمد. وحيداً يقاتل بحجته. فأحياناً يولد رجل لتنتصر بعقله أمة، ويومض سيف تذاب تحت ذؤابته[٢] رقاب الأعداء، ويتحرك لسان لتتجمع الناس بكلماته تحت راية واحدة، فالناس كثير كحبات الرمل يولد أحدهم ليتوفى الآخر، ففى كل لحظة يولد الآلاف ليتوفى المئات فلا نعرف ذا ولا نعلم ذلك، ولا نذكر أسماءهم ولا نكترث لصفاتهم لكن يبقى دائماً عدد فريد منهم قليل بينهم قد اجتباهم الله من خلقه وخصهم بنصر دينه، فخلدوا في العقول وملأوا الآفاق بذكرهم، فلكل شئ رأس ورأس العبقرية: عمر بن الخطاب[٣]

---

(١) ذهب اكثر أهل العلم إن أبا حنيفة ولد عام ٨٠ هـ وهذا ما أكده السيوطي في كتابه " تبييض الصحيفة في مناقب الإمام ابي حنيفة" ص ١٠، دار الوعي بحلب.

(٢) ذؤابته: ذؤابة السيف أى: نهاية طرفه.

(٣) قال عنه رسول الله ﷺ: " رأيت في المنام أني أنزع بدلو بكرة على قليب فجاء أبو بكر فنزع ذنوباً أو ذنوبين نزعاً ضعيفاً، والله يغفر له، ثم جاء عمر بن الخطاب فاستحالت غرباً فلم أر عبقرياً يفري فريه حتى روى الناس وضربوا بعطن" البخاري في صحيحه حديث ٣٦٨٢ ص ٤٣٧. و كذلك ذكر العقاد في كتابه "عبقرية عمر"

ورأس الجهاد: خالد بن الوليد[١]، ورأس العلم: على بن أبى طالب [٢]، ورأس الامة بعد نبيها: أبوبكر الصديق[٣]، وسيد كل هؤلاء السادة: سيدنا رسول الله، هؤلاء هم الأمة إذ بهم قد ولدت ثم جاء الجيل الثانى فكان رأس العبقرية: عمر بن عبد العزيز، ورأس الجهاد: قتيبة بن مسلم[٤] ورأس العلم: أبوحنيفة.

فأبو حنيفة أحد العقول التي ولدت لتنتصر بعقله الأمة فهو رأس العلم الذي منه تشعبت شرايين الفقه إلى سائر أرض الإسلام [٥] كما أصبح فيما بعد مولد الإمام :أحمد نصرًا وثباته فتحًا ووفاته أعجوبة، وكماأصبح بعد ذلك مولد أبي حامد الغزالي بداية آذان جديد يعلم الناس ماعجز سابقوه

---

(١) قال عنه رسول الله ﷺ بعد أن أخذ الراية في غزوة مؤتة " أخذها سيف من سيوف الله" البخارى في صحيحه حديث رقم ٣٧٥٧ ص ٤٤٥.

(٢) ذكر السيوطي في كتابه " تاريخ الخلفاء ص ١٣٧ نقلاً عن الترمذي والحاكم عن على قال:- قال رسول الله ﷺ: " أنا مدينة العلم، وعلى بابها" يقول السيوطي عنه " حديث حسن " لكن النووي قال عنه " حديث موضوع".

(٣) عن أبى هريرة ﷺقال: " والذى لا إله إلا هو لولا أن أبا بكر استخلف ما عبد الله " ذكره السيوطي في تاريخ الخلفاء ص ٥٩ نقلاً عن البيهقي وابن عساكر.

(٤) قتيبة بن مسلم: كان من سادات الأمراء، ومن نجباء القادة، لم يضع السيف طوال ثلاثة عشر سنة قضاها في ساحات الجهاد لكنه اغتيل بناء على تدبير سليمان بن عبد الملك.

(٥) ذكر ابن حجر الهيتمي في كتابه " الخيرات الحسان في مناقب الامام الأعظم أبي حنيفة النعمان "إن ابن المبارك قال: - " لقيت أبا حنيفة ولو وزن عقله بعقل نصف أهل الأرض لرجحهم".

عنه، ويفسر ماعجزت عنه الأقلام. فقد كان والد أبي حنيفة: ثابت. من الصالحين وبينما يسير ذات يوم في طريق ما إذ سقطت تفاحة من بستان فأخذها وأكل نصفها قبل أن يتذكر أنها ليست من حقه، فسارعت نفسه تطلب راحة الضمير حتى دخل على البستاني وقال له: أكلت نصف تفاحة فسامحني فيماأكلت وخذ النصف الآخر.

فقال البستاني: أنا لا أملك السماحة فالبستان ليس ملكي، وإنما هوملك سيدي، قال: وأين سيدك حتى أذهب إليه واستسمحه؟ فقال له:بينك وبينه مسيرة يوم وليلة، فقال: لأذهبن إليه مهما كان الطريق بعيدًا لأن النبي قال: "كل جسم نبت من السحت فالنار أولى به "وهام في الأرض يطلب صاحب البستان، وطرق بابه وفتح الرجل الباب وبعد أن سلم عليه قال سامحني فيما أكلت من التفاحة، وهذا نصفها فنظر إليه صاحب البستان وقال: لا أسامحك الا بشرط واحد، فقال: وماهو؟ فقال: أن تتزوج ابنتي وقد ذكر أوصافها. فقال ثابت: قبلت خطبتها، وسأتاجر فيها مع ربي.

ثم أتى أبوها بشاهدين فشهدا علي العقد، وإذا بصاحب البستان يدخل ابنته الحجرة المعدة للزواج، ودخل عليها ثابت وقال: سألقي عليها السلام، وأنا أعلم أنها صماء لترد علي الملائكة فألقى عليه السلام فردت عليه ووقفت ووضعت يدها في يده، فقال: ماذا حدث؟

ردت السلام إذا ليست بكماء وسمعت السلام إذا ليست صماء، وقامت واقفة إذا ليست مقعدة ومدت يدها إذا ليست عمياء، فقال لها: إن أباك قد أخبرني إنك صماء بكماء مقعدة عمياء، ولم أر ماأخبرني به.

فقالت: إن أبي أخبرك بأني عمياء عن الحرام، لأن عيني لا تنظر الي ماحرم الله، صماء عن كل مالايرضي الله، بكماء لأن لساني لا يتحرك الا بذكر الله، مقعدة لأن قدمي لم تحملني الى مايغضب الله. ونظر ثابت الى وجهها فكأنه القمر ليلة التمام. فبنطفة أب صالح جال الأرض هربًا من إصابة شيء حرام كانت قد سكنت برحم امرأة لم نفقد قصة صلاحها حتى يفنى العجب خرج أبوحنيفة. فعلى أمثال هؤلاء تبنى بيوت الإسلام، فالشجرة الصالحة لا تنبت إلا صالح الثمار.

فإن إسماعيل بن إبراهيم والد الإمام البخاري قال عند موته: "لا أعلم درهم واحد بمالي من حرام"فمن كنف مال حلال لم تلوثه سرقة أواختلاس خرج جسد طابت وذامه ليحمل عقل حير الدنيا بقوة حفظه، فإن أوهن البيوت تلك التي تبنى على حب زائف في أولها لتنتهي بمحاكم الأسرة في آخرها تاركةً خلفها أطفالًا سدرهم الفراق

نشأته

نشأ أبوحنيفة بين الأسواق حيث أتقن التجارة وأجاد البيع في ظل المقايضات، فكان الإقناع سبيله لقذف حجته في صدور الناس.

علم التجار احترام المبادئ بينما تعلم من التجارة الثبات في المواقف وعدم التزحزح أثناء لحظات الفرار.

فقد كان بالمسجد يوماً فدخل عيه طائفة من الخوارج شاهرين السيوف فقالوا: " يا أبا حنيفة نسألك عن مسألتين فإن اجبت نجوت وإلا قتلناك، قال: اغمدوا سيوفكم فإن برؤيتها ينشغل قلبى، قالوا: وكيف نغمدها ونحن نحتسب الأجر الجزيل بإغمادها في رقبتك!

قال: سلوا إذن

قالوا: جنازتان بالباب إحداهما رجل شرب الخمر فمات سكران، والأخرى امرأة حملت من الزنا فماتت في ولادتها قبل التوبة: أهما مؤمنان أم كافران؟

فسألهم: من أى فرقة كانا؟ أمن اليهود؟

قالوا: لا، قال: من النصارى؟ قالوا: لا

قال: من المجوس: قالوا: لا

قال: ممن كانا؟ قالوا: من المسلمين

قال: قد أجبتم.

قالوا: هما في الجنة أم في النار؟

قال: أقول فيهما ما قال الخليل عليه السلام فيمن هوشر منهما: " فمن تبعنى فإنه منى ومن عصانى فإنك غفور رحيم"

وأقول كما قال عيسى عليه السلام: " إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك انت العزيز الحكيم" فنكسوا الرءوس ... وانصرفوا.

فلا أحد يصمد لسانه بثبات كهذا في وقت قد أتكأ فيه السيف على الرقاب، ولا أحد يخرج الحجة منظمة كحبات العقد في وقت كادت تطيش فيه الألباب [1] عن الأجساد، فأبوحنيفة وحده يملك عفل لا يتأثر بالعوامل الخارجية.

فقد سقطت حية على حجر أبى حنيفة أثناء جلوسه في المسجد فهرول الناس وسيطر الهرج والمرج على المكان لكن أباحنيفة مازاد علي أن نفضها من حجره ثم استمر في حديثه[2].

وعبر ابنه حماد يصف هذا الموقف فقال: " فلا والله ما تخلخل ولا تحول من مكانه ولا تغير" .

وبهذه البديهة الوثابة التى سيطرت عليه مع شجاعة ولدت فيه الثبات تصدى للخوارج بعقله حينما اقتحموا الكوفة وأغاروا على مسجدها بينما كان أبوحنيفة وتلاميذه بالمسجد يتشاورون في أمور الفقه، فهرب الناس وسيطرت الفوضى على السكينة وأصبح المسجد ساحة سباق حيث الفائز ينجو

---

(١) الألباب: العقول، والمقصود به هنا: الرؤوس.

(٢) الذهبي في كتابه " مناقب الإمام أبي حنيفة" ص ١٨.

والخاسر يحثو[١] الصمصام[٢] على رقبته، أما أبوحنيفة كالعادة بقى يدبر الأمر بعقله لا بجسده.

فقال لتلاميذه: لا تبرحوا. فجاء الخوارج حتى وقفوا عليهم وقالوا لهم: ما أنتم؟

فقال أبوحنيفة: نحن مستجيرون؟

فقال أمير المغيرين دعوهم وأبلغوهم مأمنهم واقرءوا عليهم القرآن. فقرءوا عليهم القرآن وأبلغوهم مأمنهم.

فقد أنقذ أبوحنيفة تلاميذه من بطش هؤلاء وتساهلهم في استباحة الدماء بقوله: نحن مستجيرون؟

وأنقذ نفسه من القول: مشركون مستجيرون[٣]، كما فعل: واصل بن عطاء[٤] حينما هم الخوارج بقطع رقبته فهم هو بتلك القولة لينقذها من القفز من أعلى جسده قبل أن تسبح بباطن الأرض.

---

(١) يحثو: أى ينهال.

(٢) الصمصام: السيف.

(٣) الخوارج هم آفة أمة محمد والمصدر الذي منه تراق دماء المسلمين بالمسلمين. يطبقون ظاهر النص بلا فهم وعقولهم أضيف من قبورهم التى تشتعل عليهم ناراً، يستندون إلى قوله تعالى: ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ﴾ [التوبة: ٦].

(٤) تكرر هذا الموقف ذاته مع واصل بن عطاء حيث كان جالس مع تلاميذه فانقض الخوارج عليهم، فقال لهم واصل: نحن مشركون مستجيرون.

فما كان لأبى حنيفة أن يقول تلك الجملة، وما كان لتلاميذه أن يسمعوا إمام المسلمين الأعظم يقول: مشركون مستجيرون. بينما كالعادة سيطر ضيق عقول الخوارج على فعلهم فتذكروا قوله تعالى:

﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ﴾ [التوبة: ٦].

فقرءوا عليهم القرآن وأبلغوهم مأمنهم، كأن أبا حنيفة يحتاج لمن يقرأ عليه القرآن، وكأن جامعة أبى حنيفة التى صدرت علم الفقه إلى العالم الإسلامي كله ثم صدرت الفكر إلى العالم أجمع تقر على نفسها بالشرك.

فالعالم الحق يتعلق قلبه بالله فلا ينزعج لضائقة مادام قلبه معلقاً بخالقه فلا يخاف بشر ما دام ينصر الله بقوله وفعله فإن الله سينصره.

فقد دخل: سفيان الثورى. يوماً على المهدى. ولم يسلم بالخلافة والربيع قائم على رأسه متكيء على سيفه يرقب أمره، فأقبل عليه المهدى بوجه طلق وقال له: يا سفيان تفر هنا، وههنا تظن أن لوأردناك بسوء لم نقدر عليك، فقد قدرنا عليك الآن أفما تخشى أن نحكم فيك بهوانا؟

قال سفيان: إن تحكم فىَّ يحكم فيك ملك قادر يفرق بين الحق والباطل فقال الربيع له: يا أمير المؤمنين ألهذا الجاهل أن يستقبلك بمثل هذا؟ أتأذن لى أن أضرب عنقه، فقال له المهدي: اسكت ويلك وهل يريد هذا وأمثاله إلا أن نقتلهم فنشقى لسعادتهم، اكتبوا عهده على قضاء الكوفة على أن لا يعترض

عليه في حكم فكتب عهده ودفعه إليه فأخذه وخرج ورمى به في دجلة وغاب عن أنظار الناس فطلب في كل بلد فلم يوجد فعين مكانه شريك النخعى[١].

وقد روى أن أحد الحكام أراد أن ينكل بعالم قد خلفت فتواه لهوى الحاكم فوضعه بساحة كبيرة ودعى سائر العلماء والناس ليشاهدوا هذا المنظر ثم وضعه مقيد بالأغلال وأطلق عليه أسد جائع، فما كان من الأسد إلا أنه وقف ليحرس العالم على مرأى ومسمع من الجميع، وكذلك حدث مع التابعي الجليل: صلة بن أشيم. حين نكص بعيداً عن الجيش أثناء فتح كابل حتى دخل غيضة وقام يصلي فجاء أسد ودنا منه، وأكمل صلة صلاته حتى جلس ثم سلم فقال:

" أيها السبع إن كنت أمرت بشئ فافعل وإلا فاطلب الرزق من مكان آخر" فولى الأسد[٢].

وقيل إنه قال للأسد:

" ابحث عن رزقك في مكان آخر فأنا من أمة محمد ﷺ"

فقد صدق: صلة. فإن الأسد لا تفر إلا من صالحي أمة محمد ﷺ وأبوحنيفة أحد هؤلاء الصالحين الذين قمصت الهيبة أجسادهم فكانت تفل لعظمته الحديد وتفر لتقواه الأسد وتكمم لمكانته سطوة الحكام، فإن رجل

---

(١) ذكره د/ مصطفى مراد في كتابه " قصص الصالحين" ص ١٣٠. دار الفجر للتراث، وكذلك ذكر الذهبي في " سير أعلام النبلاء" ٥/٣٧٩ .

(٢) الذهبي في كتابه " سير أعلام النبلاء" ٣/٦٠٢ ، مكتبة الصفا، ط١.

يعادي أبا جعفر بقوة لا تضعف وتقدم ليس بعده تراجع ثم لا يقدر عليه أبوجعفر بسوء لعظيم الهيبة في الإسلام خليق بأن يكون إمامهم الأعظم فلا عظمة فوق عظمة أبى حنيفة بين العلماء.

فأطلح ما يخافه الملك المتجبر هو تلك النوعية من البشر حيث إذا قتل أججوا الرعية عليه بجريمة القتل وإذا ظلم أظهروا له ما يبطن وإذا اختلس حدثوه عن ظلمه، تراهم لا يلينون وإذا طرقت أعناقهم لا يستسلمون وإذا حاولت إغرائهم بالمال لا يستجيبون، هؤلاء يضعون مثل هذا فى مقصلة، فإما أنه لا يجد بد من قتلهم فتتعلق برقبته جريمة كهذه ليذكرها جيل بعد جيل فيحكى الأب للابن وتقص الأم للبنت أوأن يبقيه فيكون له كالغصة[1] في الحلق والشجا [2] فى البلعوم.

فإن قتل: معاوية ﷺ لحجر بن عدى. ما زال معلقاً كوصمة عار في تاريخه حتى يومنا، وقد قال: حجر لقومه عند موته.

" والله لا تطلقوا عنى حديداً ولا تغسلوا عنى دماً. فإني لاقٍ معاوية غداً على الجادة "[3].

وقد ذكر الحسن البصري. على أثر تلك الحادثة يقول: أربع خصال كن في معاوية لولم تكن فيه إلا واحدة لكانت موبقة، ثم أحصاها وذكر منها مقتل

---

(١) الغُصَّة: ما اعترض في الحلق.

(٢) الشَّجا: ما اعترض في الحلق من عظم.

(٣) الذهبي في كتابه " سير أعلام النبلاء" ٣/٥٧٦.

حجر: " فيا ويلاً له من حجر، يا ويلاً له من حجر، يا ويلاً له من أصحاب حجر" فإن الحاكم الظالم لا يتوانى عن شراء رضا أعوانه، ولا يتأخر عن امتصاص صوت المعارضة بالعطايا.فقد نادى أبوذر. بالتغير أثناء حكم معاوية للشام وداوم على مبدأه أن المسلم لا ينبغي أن يكون في ملكه أكثر من قوت يومه وليلته أوشيء ينفقه فى سبيل الله، وقد أخذ بظاهر قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ﴿٣٤﴾ ﴾ [التوبة: ٣٤] واشتد: أبوذر. فى ندائه فقال: " يا معشر الأغنياء وانسوا الفقراء" فتألب الفقراء على الأغنياء حتى تمسكوا بحقوقهم في دولة اشتراكية مما أغضب الطبقة البرجوازية التى تكونت في دولة معاوية الرأسمالية فشكوه إلى رأس هرم المنتفعين من الحكم الدينى بحياة دنيوية لسائر أحفاده بعده: معاوية رضى الله عنه فما كان منه إلا إخراج قدراته الشرائية التى كونتها عقلية التاجر الذى نشا بين عائلة كلها تعمل بالتجارة، فأرسل إلى أبى ذر ﷺ بألف دينار في جنح الليل فأنفقها.

فلما صلى: معاوية. الصبح دعا رسوله الذى أرسله إليه فقال: اذهب إلى أبى ذر فقل له: انقذ جسدى من عذاب معاوية! فإنه أرسلني إلى غيرك وإنى أخطأت بك. ففعل ذلك.

فقال له أبوذر: يا بنى قل له: والله ما أصبح عندنا من دنانيرك دينار ولكن أخرنا ثلاثة أيام حتى نجمعها[1]، فعندئذ علم معاوية أنه ﷺ ليس من تلك

(١) الذهبي في كتابه " سير أعلام النبلاء" ٣/٣٥، مكتبة الصفا.

النوعية التى يشترى رضاها بالمال وقد تيقن أن فعله يصدق قوله فكان لا يستطيع أن يبقيه فتزداد حدة الثورة الإشتراكية ضده فكتب إلى عثمان: إن أبا ذر قد ضيق على، وقد كان كذا وكذا للذى يقوله للفقراء. فكتب إليه عثمان. جهز أبا ذر إلى وأبعث معه دليلاً وزوده وأرفق به "[1].

وقد عبر الإمام الزاهد رابع الخلفاء الراشدين أمير المؤمنين: على بن أبى طالب ﷺ عن ذلك لأبى ذر قائلاً " ولوأن السموات والأرضين كانتا على عبد رتقاً ثم اتقى الله لجعل الله له منهما مخرجاً، لا يؤنسنك إلا الحق، ولا يوحشنك إلا الباطل. فلوقبلت دنياهم لأحبوك ولوقرضت منها لأمنوك"[2].

فأنا لا أقصد بكلامي السابق القول أن سيدنا معاوية: ﷺ كان يصيب ظلماً أثناء حكمه لكن أردت أن أوضح كيفية تعامل الحكام مع الأشخاص الذين تختلف مبادئهم عن هوى الحكام.

فنحن أقل من أن نتكلم عن أشخاص سبقونا إلى جنة لا ندرى سندركها أم لا. لكن أيضا يجب القول أن فترة حكم معاوية للمسلمين بمن فيهم صحابة رسول الله ﷺ. كانت حكم دنيوى لشعب دينى، فإذا قارنت أفعال معاوية: ببنى أمية خلال حكمه مع أفعال: عمر. ببنى عدى أثناء حكمه ستقاد بالتأكيد أن معاوية ومن خلفه بنى أمية قد أوقفوا عجلة الإسلام التى كانت سرعتها كالبرق وصوتها كالرعد بأفعالهم التى تقدم المنفعة وتجهل معانى التضحية.

---

(١) الذهبي في كتابه " سير أعلام النبلاء" ٣/٣٥ ، مكتبة الصفا.

(٢) الإمام محمد عبده في كتابه " نهج البلاغة" ص١٥٣ ، مكتبة الصفا.

خلقه

قيل لأبى حنيفة: اتق الله. فانتفض وطأطأ رأسه ثم قال: " يا أخى جزاك الله خيراً، ما أحوج الناس في كل وقت إلى من يذكرهم الله تعالى وقت إعجابهم بما يظهر على ألسنتهم من العلم حتى يريدوا الله تعالى بأعمالهم"[١] صدق أبوحنيفة مع خالقه سراً وعلانية قولاً وفعلاً وهو الفاعل الذى جرن[٢] الصدق، فكان إذا دخل عليه أحد وخاض في حديث الناس قطع قول جليسه بقوله:

"إياكم ونقل ما لا يحبه الناس من حديث الناس، عفا الله عمن قال فينا مكروهاً ورحم الله من قال فينا جميلاً، تفقهوا في دين الله وذروا الناس من حديث الناس وما قد اختاروا لأنفسهم"[٣].

وقال له قائل: يتكلمون فيك ولا تتكلم في أحد، قال: هو فضل الله يؤتيه من يشاء [٤].

---

(١) الذهبي في كتابه " سير أعلام النبلاء" ٥/٢٢٧ ، مكتبة الصفا، وكذلك ابن حجر في كتابه " الخيرات الحسان في مناقب الإمام الأعظم أبي حنيفة وصاحبيه" ص ٤١.

(٢) جَرَنَ: تعود الأمر واعتاد عليه.

(٣) ابن حجر في كتابه " الخيرات الحسان في مناقب الإمام الأعظم أبى حنيفة وصاحبيه" ص ٦٥.

(٤) ابن حجر الهيتمي في كتابه " الخيرات الحسان في مناقب الإمام الأعظم ابي حنيفة النعمان" ص ٤٢.

وقال عنه عبد الله بن المبارك محدثاً سفيان الثوري:

"ما بال أبى حنيفة ما سمعته يغتاب أحداً قط"

فرد عليه سفيان الثورى: -

"هو أعقل من أن يسلط على حسناته ما ينقصها" [١]

إن أبا حنيفة ترك العباد لينشغل برب العباد، نسب نفسه وماله وعلمه لملك الملوك فما زاغ عن المهيع [٢] بمطارحة [٣] بشر أوبالرد على عاهن[٤] إلا رغبة في الحق فكافأه الله تعالى بأن خيس اسمه بين جنبات التاريخ.

قال جعفر بن الربيع:

"أقمت على أبى حنيفة خمس سنين، فما رأيت أطول صمتاً منه، فإذا سئل عن شئ من الفقه تفتح، وسال كالوادى، وسمعت له دوياً وجهارة بالكلام" [٥]

وبينما كان أبوحنيفة بالمسجد يوماً فقام رجل في ناحية المسجد فجعل يسبه فما قطع حديثه، وقام إلى داره، فتبعه الرجل يشتم ويصيح حتى إذا بلغ داره قام عند الباب واستقبل الرجل بوجهه قائلاً: "هذه دارى أريد الدخول فإن

---

(١) الخطيب البغدادي في كتابه " تاريخ بغداد " ١٣/٣٦٣ ، وكذلك ابن حجر الهيتمى في كنتبه " الخيرات الحسان في مناقب الإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان" ص ٤٢.

(٢) المَهْيَع : الطريق النيرة الواضحة.

(٣) مطارحة: مغالبة، والمقصود بها هنا: مجادلة.

(٤) عاهن: الذى يتكلم دون أن يفكر.

(٥) ذكر السيوطي في كتابه " تبييض الصحيفة في مناقب الإمام أبي جنيفة" ص ٣٩، دار الوعي بحلب.

كنت تستم باقي كلامك فأتمه حتى لا يبقى شئ مما عندك حتى لا تخاف الفوت" فاستحى الرجل، وقال: اجعلنى في حل[١].

قال: أنت في حل..

قدر العظماء أن يتلقوا شولة [٢] الجهال ويصابوا بذعاف [٣] الحماقة، فقد سخر الناس من: عباس بن فرناس بعد أدائه تجربة الطيران واتهموه بالجنون ثم جلسوا معاً بعده بقرون في الطائرات ليتعجبوا من صاحب هذه الفكرة التى مكنت الإنسان من عبور القارات في ساعات معدودة[٤]، وكذلك فعلوا مع: الخليل بن أحمد[٥]. واتهموه بالهرطقة ثم بدأت عقولهم تفهم ما كانوا يسخرون منه بعد عشرات السنين.

---

(١) ابن حجر الهيتمي في كتابه " مناقب الإمام الأعظم " ١/٢٦٩.

(٢) شولة: لدغة.

(٣) ذعاف: السم القاتل في لحظتها..

(٤) قام الإخوان رايت باول تجربة طيران ناجحة عام ١٩٠٣م لكن أول من حاول الطيران هو عباس بن فرناس عندما كسا جسمه بالريش وقفز فى فضاء قرطبة لتتسبب هذه التجربة بوفاته نتيجة خطأ في أسلوب الهبوط.

(٥) الخليل بن أحمد هو مؤسس علم العروض، وهو صاحب كتاب "العين" الذي لم يفهمه أحد بادئ الأمر مما جعله مصب للسخرية والهجاء . سير أعلام النبلاء ٥/٤٦٧.

فقد استحر النقاش معه في مسألة أفتى فيها: الحسن البصرى فقال: أخطأ الحسن[١]

فقال له رجل: أنت تقول أخطأ الحسن يا ابن الزانية، فما تغير وجهه ولا تلون ثم قال: والله أخطأ الحسن وأصاب عبد الله بن مسعود وكان يقول: اللهم من ضاق بنا صدره، فإن قلوبنا قد اتسعت له[٢].

وقد كان لأبي حنيفة ﷺ على بعض المجوس مالاً فذهب إلى داره ليطالبه به، فلما وصل إلى باب داره وقع على نعله نجاسة، فنفض نعله فارتفعت النجاسة عن نعله، ووقعت على حائط جدار هذا المجوسى، فتحير أبوحنيفة وقال: إن تركتها كان ذلك سبباً لقبح دار هذا المجوسى، وإن حككتها انحدر التراب من الحائط فدق الباب فخرجت الجارية فقال لها: قولى لمولاك إن أباحنيفة بالباب، فخرج إليه وظن أنه يطالبه بالمال فأخذ يعتذر.

فقال أبوحنيفة ﷺ: هاهنا ما هوأولى، وذكر قصة الجدار، وكيف السبيل إلى تطهيره، فقال المجوسى: فأنا أبدأ بتطهير نفسى فأسلم في الحال.

ليس الشعارات كالحقيقة ولا الكلمات كالواقع، وليس من يتكلم كمن يفعل ولا كل من يعد يفِ، فلا كل من دخل المقصلة يصمد ولا كل من صمد ينتصر، فمراوضة الأسد لا تصح إلا بشجاعة تضاهي شجاعتهم ومغالبة الوحوش لا تتم إلا بقوة تعادل قوتهم قدراً وتفوقهم صبراً.

---

(١) الذهبي في مناقبه ص ٢٥.

(٢) الخطيب البغدادي في كتابه "تاريخ بغداد" ١٣/٣٥١.

يقول حفص بن عبد الرحمن: " جالست أنواع الناس من العلماء والفقهاء والزهاد والنساك وأهل الورع منهم، فلم أر أحداً أجمع لهذه الخصال من أبى حنيفة"[١].

لم يكن هذا كلام رجل دخل الكوفة وأبصر أبا حنيفة فشهد له بذلك، وإنما هذا كلام رجل تتلمذ على يده وشاركه فى كسبه وقاسمه طعامه قرابة الثلاثين سنة، ولما دار الزمن وانفلقت اليد عن الرأس وترك كل منهم الآخر عاد يقول فيه:

" فى طول ما صحبت أبا حنيفة وخالطته لم أره يعلن بخلاف ما يسر، ولم أر أحداً يتوقى مما لا خطر له مثلما كان يتوقاه، وكان إذا دخلت عليه شبهة من شئ أخرج من قلبه ذلك ولو بجمع ماله" [٢] فإن أصدق الطرق إلى الله تلك التى يتبعك الناس لجمال فعلك لا لخلابة قولك فقد أغلظ أعرابي يوما للخليفة المنصور فقال:"فلما رآك أعوانك تحبس المال ولا تقسمه، قالوا: خان الله فمابالنا لا نخونه، واتفقوا علي كتم أمور الرعية عنك" وقد كان لأبي حنيفة جار إسكاف يحيي الليل بشرب الخمر بينما يسهر أبوحنيفة بذكر الله حتى إذا جن الليل حمل لحمًا فطبخه وأتبعها بكؤوس الخمر لتتبع الأمواج رأسه تلاطمها ثم يقول:

---

(١) مناقب الموفق ١/٦٢.

(٢) مناقب الموفق ١/٦٢.

أضـاعوني وأي فـتي أضـاعوا ليوم كريهة وسـداد ثغـر

كأني لم أكن فيهم وسيطا ولم تك نسبتي في آل عمرو

أجـر في المجـامع كـل يـوم فيـالله مظلمـتي وصـبري

وذات مساء افتقدت صملاخ أبي حنيفة ذلك الصوت فسأل عن جاره فقيل له :إن العسعس اقتادوه إلى السجن منذ ليال، فصلى الفجر من الغد ودعا بسواده وقلنسوته الطويله وركب بغلته وقصد الي دار الأمير: عيسى بن موسى. يستشفع لجاره عنده، فأكرم الأمير مثواه وأطلق سراح كل من أخذه الشرط من تلك الليلة الي ذلك اليوم وقفل الرجلان راجعين ثم التفت الي الإسكافي قائلا: يافتى.هل أضعناك؟ فأجاب قائلا: بل حفظت ورعيت جزاك الله خيرا. فتاب الفتى وأقلع عن الشراب ثم قدر له أن يصبح من فقهاء الكوفة. فعقل أبي حنيفة وحده القادر على تحويل شارب خمر الى فقيه، وعمل أبي حنيفة وحده القادر على تحويل سكير الى عالم

يقول حفص بن عبدالرحمن عنه:"جالست أنواع الناس من العلماء والفقهاء والزهاد والنساك وأهل الورع منهم،فلم أر أجمع لهذه الخصال من أبي حنيفة" وبعث أبوحنيفة الي فتية يقول لهم :" إن أباكم أودع عندي مائة وسبعين ألفا فخذها ! ولم يشهد عليهم فانه لم يكن أشهد عليه، وهو لا يريد أن يعلم أحدا أن لهم هذا المال" صدق أبوحنيفة إذ رد الأمانات الى أصحابها وصدق الرجل إذ لم يشهد أحد على أبي حنيفة فليس على الأمناء خيانة وليس على أهل التقوى مزايدة.

حلمه

رجلا شتم أبا حنيفة ثم أن أبا حنيفة تركه وذهب فمشى الرجل خلفه يسبه، فلما وصل أبوحنيفة الى بيته التفت الى الرجل وقال له: "هذه داري أريد الدخول فان كنت تستم باقي كلامك فأتمه حتى لا يبقى شيء مماعندك حتى لا تخاف الفوت "هذا حلم أبي حنيفة حجبه عن مطارحة رجل سفيه، ومنعه من عناء مواجهة السفاهة بمثلها، وقد قالها تلميذه الروحي: أبوعبدالله محمد بن إدريس بن شافع. بعده بمئات السنين بأبيات شعر

قالوا سكت وقد خوصمت قلت لهم ان الجواب لباب الشر مفتاح
والصمت عن أحمق أو جاهل شرف وفيه أيضا لصون العرض إصلاح
أما ترى الأسد تخشى وهي صامتة والكلب يخسى وهوفي الأصل نباح

كان هذا ما قاله الشافعي بعد أبي حنيفة بعشرات السنين وما أكده: جورج شو بعدهما بمئات السنين حين قال:"إذا صارعني خنزير فلا أصارعه حتى لا أتسخ" فلكل شيء آفة وآفة العلم النسيان، ولكل شيء بلوة وبلوة العالم الجهال. وأعلى درجات الحلم تلك التي تصبر فيها على لسان جاهل وتتحمل أذى فعله كما تصمد أمام قذارة قوله، يقول الامام علي:

ضد كل امريء ما كان يجهله والجاهلون لأهل العلم أعداء

فقد كان: مسعر بن كدام يترك تلاميذه ويجلس في حلقة أبي حنيفة، فيقول له تلاميذه نحن نسألك عن الأحاديث وأنت تجلس إلى أهل البدع؟ فيجيب مسعر: "لوقام أصغر من فيهم لأهل الموسم لوسعهم علما" فقد شبه تلاميذة

مسعر أباحنيفة وأصحابه بأهل البدع لكن مسعر أبدى فيهم هذا الرأي العظيم، أي أنه بصيغة أخرى يمكن القول: إن رأي التلاميذ خرج بمقدار ما تحويه عقولهم ولكن رأي العالم خرج بمقدار عقله حيث لا حد يحجب فكره ولا حدود تلوث رأيه

فالألسنة لا تنطق إلا بما يأمرها العقل والعقل لا يخرج أمر إلا بمقدار فهمه، والفهم لا يتشكل إلا بما يسعه داخله، وداخل العقل لغز لا يفهمه إلا من ليس لعقله حدود. فلوأنك من خمسة عشر قرناً أخبرت أحداً أن الشمس تجري لجرى هو من أمامك متهمك بالجنون، أما الآن فلو أنك أخبرت أحداً أن الشمس لا تجري لاتهمك بالجهل، فالعقول أوعية والأوعية لا تعي إلا ما بداخلها وما بداخلها لا يوضع من تلقاء نفسه.

فقد سبه رجلاً قائلاً: يا مبتدع يا زنديق، فما زاد عن قوله: غفر الله لك، الله يعلم مني خلاف ما قلت، وأني ما عدلت به أحداً منذ عرفته، قال الرجل: اجعلني فى حل، قال الإمام: " كل من قال فى شيئا من الجهل فهوفي حل وكل من قال في شيئا من أهل العلم فهوفي حرج، فإن غيبة العلماء تبقى شيئاً بعدهم[1].

إن خروج لسان الجمال عن موضعه في شخص أبي حنيفة لا ينم إلا عن ضيق عقل خصومه الذى دفعهم إلى عدم فهم ما جاء به أبوحنيفة من إدخال

---

(١) الموفق بن احمد المكي في كتابه " مناقب الإمام الأعظم أبي حنيفة"ص ٢٤٨.
وكذلك ذكر الذهبي في كتابه " مناقب الإمام أبى حنيفة وصاحبيه" ص ٢٥.

الرأى بالدين فتطاولوا عليه، وأنهالوا عليه بالسب من كل حدب وصوب فوسعهم علمه كما شملهم حلمه. وكان يقول: "اللهم من ضاق بنا صدره فإن قلوبنا قد اتسعت له"

فالناس في خلق الصبر نوعان:

النوع الأول: يغلب عليه الشدة وتكون عصبيته سابقة لهدوئه، كحال: موسى عليه السلام فقد اتسم بالشدة حتى أنه ضرب: ملك الموت. حينما جاء لقبض روحه[١].

النوع الثانى: يغلب عليه اللين ويكون هدوئه سابق لعصبيته، كحال إبراهيم عليه السلام فقد اتسم باللين حتى أنه تشفع لقوم لوط مراراً قبل أن يتزل عليهم العذاب[٢]. وكذلك كان حال: أبوبكر وعمر رضي الله عنهما[٣] بين الصحابة.

---

(١) ذكر ابن كثير في كتابه " قصص الانبياء" ص ٤٨٠، دار بغداد نقلاً عن الإمام أحمد عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: " كان ملك الموت يأتي الناس عياناً" قال:- فأتى موسى عليه السلام فلطمه ففقأ عينه، فأتى ربه فقال: يارب... عبدك موسى ففأ عيني، ولولا كرامته عليك لعتبت عليه".

(٢) كان من رحمة إبراهيم عليه السلام إنه كان يجادل الملائكة ويستشفع لقوم لوط، قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ ﴾ [هود: ٧٤].

(٣) كان عمر ﷺ شديد في دين الله، قال عنه أبو سفيان بن حرب رضى الله عنه: قبل فتح مكة " جئت عمر فوجدته أعدى العدو".

ابن كثير في كتابه " البداية والنهاية " ص ٦٥٠ – المجلد الثاني..

أما الصديق فقد كان رقيقاً حليماً، قال عنه عمر بن الخطاب ﷺيصفه: " كان أحلم مني وأوقر " السيوطي في كتابه " تاريخ الخلفاء ص ٥٥".

ثم كان بعدهم: عثمان وعلى ﷺ [1]. بين الصحابة والتابعين.

فبعض الناس قلوبهم أشد من الحجارة في دين الله، تراهم يبغضون الكفر ويقاتلون الكفار بلا هوادة كالصحابي: خالد بن الوليد ﷺ حتى أنه أجرى بحراً من دم المجوس في معركة " أليس" [2] بعكس أبوعبيدة بن الجراح. الذى اتسم باللين وتميز بالتباطؤ في زج رقاب الأعداء، فالناس طبائع سواء كانوا أنبياء أوصحابة أوعلماء أوسائر الناس، فكلما غضب العقل اشتد القلب وحين يلين القلب تهدأ السريرة.

أما أبوحنيفة فكان من النوع الثانى الذى يغلب عليه اللين فتهدأ السريرة وقد ساعده هذا الطبع كثيراً بين تلاميذه.

---

(١) كان عثمان ﷺ رقيقاً حليماً، أما على بن أبي طالب ﷺ كان قوياً شديدا في ذات الله . ذكر السيوطي في كتابه " تاريخ الخلفاء" ص ١٣٩ نقلاً عن الحاكم عن أبي سعيد الخدري قال: اشتكى الناس علياً فقام رسول الله ﷺ فينا خطيباً فقال: " لا تشكوا عليًا، فو الله إنه لأخيشن فى ذات الله أو في سبيل الله".

(٢) هي معركة خاضها المسلمون سنة ١٢ هـ بقيادة : خالد بن الوليد ﷺ ضد الفرس بقيادة: جابان. اقسم خالد بن الوليد ﷺ فقال: " اللهم لك على إن منحتنا أكتافهم ألا أستبقى منهم أحداً أقدر عليه حتى أجرى نهرهم بدمائهم" وبالفعل عندما انتصر المسلمون أجرى خالد ﷺ النهر بدمائهم فسميت بمعركة نهر الدم. ابن كثير في البداية والنهاية ص ٧٤٦ ، المجلد الثالث.

فالنوع الأول كحال: الأعمش. [1] يعطي دون أن يأخذ ويمنح دون ان يناقش وقد ساعد طبع اللين أبا حنيفة فى سهولة مناقشة تلاميذه ويسر التعامل معهم.

(١) الاعمش هو واحد من أثبت المحدثين، وأحد الذين شهد لهم النعمان بالعلم، قال عن نفسه: " لولا القرآن، وهذا العلم من عندي لكنت من بقالي الكوفة " . لكنه اشتهر بالشدة مع طلبة العلم حتى إن الذهبي ذكر في كتابه " سير أعلام النبلاء" ص ٢٣٣، الجزء السادس، مؤسسة الرسالة، ط ٢٠٠١ عن أبي عوانة قال:- " جاء رقبة إلى الأعمش، فسأله عن شئ فكلح في وجهه، فقال له رقبة: : أما والله ما علمتك لدائم القطوب، سريع الملال، مستخف بحق الزوار، لكأنها تسعط الخردل إذا سئلت الحكمة".

طلبه للعلم

مر أبوحنيفة يوماً على الشعبي فدعاه، فقال له: إلى من تختلف؟

قال أبوحنيفة: اختلف إلى السوق، قال الشعبي: لم أعى الاختلاف إلى السوق، عنيت الاختلاف إلى العلماء،فقال أبوحنيفة: أنا قليل الاختلاف إليهم

فقال: لا تغفل وعليك بالنظر في العلم ومجالسة العلماء، فإنى أرى فيك يقظة وحركة. يقول أبوحنيفة: فوقع في قلبى من قوله، فتركت الاختلاف إلى السوق، وأخذت في العلم، فنفعنى الله بقوله[١].

فمنذ أن تدفقت تلك الكلمات إلى عقله ما توقف التاجي[٢] عن ضخ العلم إلى قلبه حتى أن دماءه كانت لا تجرى إلا بنور العلم فتسمو إلى رأسه لتسمو معها درجات العلم بداخله حتى يصبح الرجل الذى قيل فيه: " الناس عيال عند أبى حنيفة في الفقه" [٣].

---

(١) ذكره ابن حجر الهيتمى في كتابه " الخيرات الحسان في مناقب الإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان" ص ٢٧، مطعبة السعادة.

(٢) التاجي: شريان على هيئة التاج يغذي عضلة القلب.

(٣) الذهبي في كتابه " سير أعلام النبلاء" ص ٥/٢٢٩، مكتبة الصفا.

وكذلك ذكر ابن حجر الهيثمي في كتابه " الخيرات الحسان في مناقب الامام الأعظم أبي حنيفة النعمان " ص ٣١ إن الإمام الشافعي قال ايضاً:- " من لم ينظر في كتبه لم يتبحر في العلم ولا تفقه".

ولو أن شخصاً سوى الشافعي قال هذه العبارة لقلنا إنه يتكلم على قدر عقله أو بمقدار علمه ولكنه الشافعي أو لو شئت قلت: شافي عي.[١]

فهذه شهادة عظيمة في عظيم ومجدد قرن فى مجدد قرن ماضٍ.

وكان أبوحنيفة في بدايات رحلته في طلب العلم قد سلك علم الكلام حتى أصبح من الأحراض[٢]، يقول أبوحنيفة: " كنت رجلاً أعطيت جدلاً في الكلام فمضى دهر أتردد فيه، وبه أخاصم، وعنه أناضل، وكان أصحاب الخصومات والجدل أكثرهم بالبصرة، فدخلت البصرة نيفاً وعشرين مرة، في كل منها أقيم سنة وأقل وأكثر، وكنت نازعت طبقات الخوارج من الإباضية والصفرية وغيرهم، وكنت أعد الكلام أفضل العلوم، وكنت أقول هذا الكلام في أصل الدين فراجعت نفسى بعدما مضى لى فيه عمر، وتدبرت فقلت.. إن المتقدمين من أصحاب النبى ﷺ والتابعين لم يكن يفوتهم شيء مما ندركه نحن، وكانوا عليه أقدر، وبه أعرف، وأعلم بحقائق الامور، ثم لم ينتصبوا فيه منازعين ولا مجادلين، ولم يخوضوا فيه، بل أمسكوا عن ذلك ونهوا عنه أشد النهي، ورأيت خوضهم في الشرائع وأبواب الفقه، وكلامهم فيه، عليه تجالسوا، وإليه حضروا، كانوا يعلمون الناس، وبدعونهم إلى التعلم ويرغبونهم فيه ويفتون ويستفتون وعلى ذلك مضى الصدر الأول من السابقين، وتبعهم التابعون عليه، فلما ظهر لنا من أمورهم هذا الذى وصفنا، تركنا المنازعة والمجادلة

---

(١) العي: الجهل، فحينما نقول: شافي عي أي : شافى الجهل.

(٢) الأحراض: الذين يشار إليهم بالبنان.

والخوض في الكلام، واكتفينا بمعرفته ورجعنا إلى ما كان عليه السلف، وأخذنا فيما كانوا عليه، وشرعنا فيما شرعوا وجالسنا أهل المعرفة بذلك، وإني رأيت أن من ينتحل الكلام ويجادل فيه قوم ليس سيماهم سيما المتقدمين، ولا منهاجهم منهاج الصالحين، رأيتهم قاسية قلوبهم، غليظة أفئدتهم، لا يبالون مخالفة الكتاب والسنة والسلف الصالح، ولم يكن لهم ورع ولا تقى وسأل أبويوسف أبا حنيفة: كيف وفقت إلى الفقه؟

فقال: أخبرك، أما التوفيق فكان من الله، وله الحمد كما هوأهله ومستحقه إني لما أردت تعلم العلم جعلت العلوم كلها نصب عيني، فقرأتها فنا فنا وتفكرت عاقبته وموضع نفعه فقلت: آخذ في الكلام ثم نظرت، فإذا عاقبته عاقبة سوء، ونفعه قليل، وإذا كمل الإنسان فيه، لا يستطيع أن يتكلم جهاراً ورمى بكل سوء، ويقال: صاحب هوى ثم تتبعت أمر الأدب والنحو فإذا عاقبه أمره أن أجلس مع صبي اعلمه النحو والأدب، ثم تتبعت أمر الشعر فوجدت عاقبة أمره المدح والهجاء، وقولى الكذب وتمزيق الناس، ثم تفكرت في أمر القراءات، فقلت: إذا بلغت الغاية منه اجتمع إلى أحداث يقرءون على، والكلام في القرآن ومعانيه صعب، فقلت: أطلب الحديث، فقلت: إذا جمعت منه الكثير أحتاج إلى عمر طويل حتى يحتاج الناس إلى، وإذا احتيج إلىّ لا يجتمع إلا الأحداث ولعلهم يرمونى بالكذب وسوء الحفظ فيلزمني ذلك إلى يوم الدين، ثم قلبت الفقه فكلما قلبته وأدرته لم يزدد إلا جلالة، ولم أجد فيه عيباً، ورأيت الجلوس مع العلماء والفقهاء والمشايخ والبصراء والتخلق بأخلاقهم، ورأيت أنه لا يستقيم أداء الفرائض وإقامة الدين والتعبد إلا بمعرفته، وطلب الدنيا والآخرة به ومن أراد أن يطلب الدنيا

طلب به أمراً جسيماً، وصار إلى رفعة منها، ومن أراد العبادة والتخلي لم يستطع أحد أن يقول تعبد بغير علم وقيل إنه: فقه وعمل بعلم[١].

كعادة أبى حنيفة لا يحسب الأمور إلا بعقله، ولا يخطو الخطى إلا بفكره، أما مرحلة التنفيذ فكان لابد لها من سبب قوى ليجعله يتحول من علم بلغ أقصاه إلى علم سيبدأ خطاه من جديد، يقول أبوحنيفة: "كنت أنظر في الكلام حتى بلغت فيه مبلغاً يشار إلي فيه بالأصابع".

وكنا نجلس بالقرب من حلقة حماد بن أبى سليمان، فجاءتنى امرأة يوماً، فقالت: رجل له امرأة أمة، أراد أن يطلقها للسنة، كم يطلقها؟ فأمرتها أن تسأل حماداً، ثم ترجع فتخبرني، فسألت حماداً ..

فقال: يطلقها وهى طاهرة من الحيض والجماع تطليقه، ثم يتركها حتى تحيض حيضتين، فإذا اغتسلت فقلت: حلت للزواج، فرجعت[٢].

فقلت: لا حاجة لي في الكلام، وأخذت نعلى، فجلست إلى حماد، فكنت أسمع مسائله، فاحفظ قوله ثم يعيدها من الغد، فأحفظ ويخطئ أصحابه،

---

(١) الذهبي في كتابه "سير أعلام النبلاء" ص ٥/٢٢٥ ، وكذلك ذكر ابن حجر الهيتمي في كتابه " الخيرات الحسان في مناقب الإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان" ص ٢٨، مطبعة السعادة.

(٢) الذهبي في كتابه "سير أعلام النبلاء" ص ٥/٢٢٥ ، وكذلك ذكر ابن حجر الهيتمي في كتابه " الخيرات الحسان في مناقب الإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان" ص ٢٧.

فقال: لا يجلس صدر الحلقة بحذائى غير أبي حنيفة[1].

روى أن حماداً قال له: ما جاء بك؟ قال: تعلم العلم، قال: تعلم كل يوم ثلاث مسائل. فإذا أردت القمة فعليك أن تجد من يأخذك إليها، وإذا أردت العظمة فعليك أن تدرك من يدرك معاييرها، فللطالب من معلمه نصيب، فلو أن تلميذاً لم يصب من معلمه شيئا فذلك تلميذ فاشل، ولو أن تلميذاً أصاب من معلمه علماً ولم يصب أدباً فذلك تلميذ تعيس، ولو أن تلميذاً أصاب من معلمه أدباً ولم يصباً علماً فذلك تلميذ جاهل، أما التلميذ الحق هو الذى أصاب العلم والأدب وهو الوارث حقاً فأبويوسف كان يغتم عندما يشكره أحد ثم يقول:

"إذا قلت لأبي حنيفة ما رأيت أجود منك، يقول: كيف لو رأيت حماداً"، فكأنه سلسال متصل، أبويوسف يغتم لمن يشكره ويذكر جود أبى حنيفة، وأبوحنيفة يغتم لمن يشكره ويذكر سخاء حماد، وكذلك كان أبوحنيفة يقول: " إنى لأدعو لحماد مع أبوى".

---

(١) الذهبي في كتابه "سير أعلام النبلاء" ص ٥/٢٢٥ ، وكذلك السيوطي في كتابه " تبييض الصحيفة في مناقب الإمام أبي حنيفة " ص ٢٤.

ويقول أبويوسف: " إنى لأدعولأبي حنيفة قبل أبوى"[1] فهذه هى وراثة التلميذ للعالم، يقول أبوحنيفة: " كنت في معدن العلم والفقه، فجالست أهله، ولزمت فقيهاً من فقهائهم".

فقد كان يحضر لأحمد بن حنيل في المجلس الواحد بعدما سقطت فتنة خلق القرآن بموت الواثق بالله ما يقرب من خمسة آلاف نفس، خمسمائة يتعلمون العلم والباقي يتعلمون سمت الإمام: أحمد. وأدبه فأبوحنيفة هو القليب [2] الذى إذا اغترفت منه سملة صرت عالماً ليس لك ند، وهو الدأماء"[3] الذى تفرعت منه مناهل العلم.

فما أبويوسف إلا رجل قد اغترف سملة من القليب فأصبح عالماً ليس له ند،ومازفر، ولاالفضيل، ولامسعر، ولاابن المبارك إلا مناهل تفرعت من دأماء صدره.

---

(١) السخاوي في كتابه "فتح المغيث" ٢/٣٠١.

(٢) القليب:البئر.

(٣) الدأماء:البحر.

بين يدى حماد

جلس أبوحنيفة بين يدي حماد. يتلقى علمه ويتقن صناعته فكان يسمع مسائله ويحفظ قوله حين ينسى أصحابه حتى أن حمادا كان يقول:

" لا يجلس صدر الحلقة بحذائى غير أبى حنيفة "[١].

وقد قال ابن جريج عنه فى صغره:

"سيكون له في العلم شأن عجيب " وقال عنه بعدما كبر: إنه الفقيه، إنه الفقيه؟[٢] وقال عنه بعد موته: " لقد ذهب معه علم كثير "[٣].

يقول أبوحنيفة عن شيخه حماد:

"صحبته عشر سنين ثم نازعتنى نفسي الطلب للرياسة، فأردت أن أعتزله، وأجلس في حلقة لنفسى، فخرجت يوماً بالعشى، وعزمى أن أفعل، فلما دخلت المسجد ورأيته لم تطب نفسى أن أعتزله، فجئت وجلست معه، فجاءه في تلك الليلة نعى قرابة له قد مات بالبصرة، وترك مالاً، وليس له وارث غيره، فأمرنى أن أجلس مكانه فما هو إلا أن خرج حتى وردت على مسائل لم أسمعها منه،

---

(١) الذهبي في كتابه"سيرأعلام النبلاء"ص٥/٢٢٥، و كذلك السيوطي في كتابه "تبييض الصحيفة في مناقب الامام أبي حنيفة"ص٢٤

(٢)ابن حجر الهيتمي في كتابه"الخيرات الحسان في مناقب الإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان"ص٣٤ ، مطبعة السعادة.

(٣) الذهبي في كتابه "مناقب الامام الأعظم و صاحبيه"ص٢٩

فكنت أجيب وأكتب جوابى، ثم قدم فعرضت عليه المسائل، وكانت نحو ستين مسألة فوافقنى في أربعين وخالفنى في عشرين، فآليت على نفسى ألا أفارقه حتى يموت أو أموت، فلم أفارقه حتى مات"[١].

فقد نشأ رحمه الله بين أكناف مدرسة لها شأن فزادها صيتاً، يحب مشايخه ويحترمهم وأحياناً يتعصب لمدرسته، شهد سفيان بن عيينة مناظرة لأبي حنيفة مع الأوزاعي فقال:

اجتمع أبوحنيفة والأوزاعى في دار الخياطين بمكة، فقال الأوزاعي لأبى حنيفة: مالكم لا ترفعون أيديكم عند الركوع وعند الرفع منه؟ فقال أبوحنيفة: لأجل إنه لم يصح عن رسول الله ﷺ إنه كان يرفع يديه إذا افتتح الصلاة وعند الركوع، وعند الرفع، قال: كيف! وقد حدثنى الزهرى عن سالم عن أبيه عن رسول الله ﷺ إنه كان يرفع، فقال أبوحنيفة: حدثنا حماد عن إبراهيم عن علقمة عن ابن مسعود [٢]أن رسول الله ﷺ كان لا يرفع يديه إلا عند افتتاح الصلاة، ولا يعود إلى شئ من ذلك، فقال الأوزاعي: أحدثك عن

---

(١) الذهبي في كتابه "سير أعلام النبلاء "٥/٢٢٦ و كذلك الذهبي في كتابه "مناقب الامام أبي حنيفة و صاحبيه"ص١٩. و كذلك السيوطي في كتابه"تبييض الصحيفة في مناقب الامام أبي حنيفة"ص٢٤،دار الوعي بحلب

(٢) ذكر محمد بن الحسن في كتابه "فتح المغطا شرح الموطأ"باب افتتاح الصلاة.و قد نقل محمد بن الحسن عن النخعي انه قال:"إن كان وائل ﷺ رآه مرة يفعل ذلك فقد رآه عبدالله بن مسعود خمسين مرة لا يفعل ذلك "ونقل عن الأسود انه قال:"رأيت عمر بن الخطاب يرفع يديه في أول تكبيرة ثم لا يعود"

الزهرى عن سالم عن أبيه، وتقول: حدثنا حماد عن إبراهيم فقال أبوحنيفة: كان حماد أفقه من الزهرى، وكان إبراهيم أفقه من سالم، وعلقمة ليس دون ابن عمر، وإن كان لابن عمر صحبة فالأسود له فضل كثير".

فهذه المدرسة هي أكثر من صبت علومها فوق هام رأسه، فإبراهيم النخعى شيخ حماد يقول عنه بعض الناس:

جلست إلى إبراهيم النخعي ما بين العصر إلى المغرب فلم يتكلم، فلما مات سمعت الحكم وحماد يقولان: قال إبراهيم فأخبرتهما بجلوس فلم يتكلم فقالا: أما أنه لا يتكلم حتى يسأل[1]، ولقد قال: " وددت انى لم اكن تكلمت ولو وجدت بداً من الكلام ما تكلمت" [2]

وقال الشعبي عنه لما مات عام ٩٥ هـ:

دفنتم أفقه الناس، قيل: ومن الحسن؟ قال: أفقه من الحسن ومن أهل البصرة، ومن أهل الكوفة وأهل الشام وأهل الحجاز[3].

وقال عنه أيضا:

"هلك الرجل... إنه نشأ في أهل بيت فقه فأخذ فقههم، ثم جالسنا فأخذ صفو حديثنا إلى فقه أهل بيته فمن كان مثله".

ويقصد الشعبي بكلامه: " إنه نشأ في أهل بيت فقه" يقصد، علقمة والأسود النخعي، وهما رأس السلسلة التى شكلت المدرسة التى تخرج منها أبا حنيفة.

---

(١) الاصبهاني في كتابه"حلية الأولياء و طبقات الأصفياء"الجزء الخامس ص٢٢٦

(٢) الاصبهاني في كتابه"حلية الأولياء و طبقات الأصفياء"الجزء الخامس ص٢٢٣

(٣) الاصبهاني في كتابه"حلية الأولياء و طبقات الأصفياء"الجزء الخامس ص٢٢٠

يقول أبوحنيفة عن مصادر الفقه الأخرى التى أفضت إليه:

"تلقيت فقه عمر وفقه على، وفقه عبد الله بن مسعود، وفقه ابن عباس عن أصحابهم". رحم الله أبا حنيفة فإنه لم يكن فى عصر عسعس[١] ليله بالجهل فأضاءه، ولم يكن فى عصر خلا إناؤه من العلماء إلا من تلك الصبابة[٢] التى كانت تمثل شخص أبى حنيفة، ولكنه كان فى عصر حفل بأعلم علماء التاريخ الإسلامى، فظهر عطاء بن أبى رباح [٣] وحماد بن أبى سليمان[٤].

---

(١) عسعس: أي: اشتد ظلامه، في قوله تعالى:﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ١٧ ﴾ [التكوير: ١٧].

(٢) الصبابة: من الإناء أى: بقيته.

(٣) عطاء بن أبي رباح: قال عنه أبو حازم " فاق عطاء أهل مكة" ، وقال عنه أبو حازم:- " ما أدركت أحداً أعلم بالحج من عطاء بن أبي رباح، وقال عنه أبو جعفر: خذوا من عطاء ما استطعتم . الذهبي في سير أعلام النبلاء ٥/٧٩.

(٤) حماد بن أبي سليمان: قال شعبة: سمعت الحكم يقول: ومن فهم مثل حماد يعني أهل الكوفة، وقال عنه احمد بن عبد الله العجلى:- كان أفقه أصحاب إبراهيم ، وكانت ربما تعتريه موتة وهو يحدث . الذهبي في سير أعلام النبلاء ٥/٢٣١ . بالمدينة، قال عنه أنس بن مالك: سلوا الحسن فإنه حفظ ونسينا .

وكذلك الحسن البصرى[١] وإبراهيم النخعي[٢] وسعيد بن جبير[٣] والإمام مالك[٤] وسفيان بن عيينة[٥] وسفيان الثورى[٦].

---

(١) الحسن البصري: سبيت أمه بميسان وهى حامل به فولدته قال عنه أبو بردة: " ما رأيت أحداً أشبه بأصحاب محمد ﷺ منه . الذهبي فى سير أعلام النبلاء ٤/٥٦٤ .

(٢) إبراهيم النخعى: كان مفتي أهل الكوفة، قال عنه سعيد بن جبير:- أتستفتوني وفيكم إبراهيم؟ ، وقال عنه الحاكم: كان إبراهيم النخعي يحج مع عمه وخاله علقمة والأسود . الذهبي عن سير أعلام النبلاء ٤/٥١٢.

(٣) سعيد بن جبير: عن عمرو بن ميمون عن أبيه قال: " لقد مات سعيد بن جبير وما على الأرض من أحد إلا وهو محتاج إلى علمه" ، قتله الحجاج بن يوسف لخروجه مع جيش الأشعث ضد بنى امية ، وكان ابن جبير هو آخر من قتله الحجاج.

(٤) الإمام مالك: هو مالك بن أنس حفيد الصحابي أبو عامر الأصبحي ولد سنة ٩٣ هـ ، عالم أهل المدينة، صاحب كتاب الموطأ، توفى سنة ١٧٩ هـ

(٥) سفيان بن عيينة: طلب الحديث ولقى الكبار، قال عنه الإمام الشافعي: " لولا مالك وسفيان بن عنينة لذهب علم الحجاز " ، وقال عنه عبد الرحمن بن مهدي:- " كان ابن عنينة من أعلم الناس بحديث الحجاز " وقال عنه ابن وهب:- لا أعلم أحدا أعلم بتفسير القرآن من ابن عيينة، روى عنه إنه قال لرجل: ما حرفتك؟ قال"- طلب الحديث. فقال له:- بشر أهلك بالإفلاس. الذهبي عن سير أعلام النبلاء ٤٥٥ : ٨/٤٦١.

(٦) سفيان الثوري:- ولد سنة ٩٧ هـ ، طلب العلم منذ صغره حتى قيل إن عدد شيوخه ست مائة شيخ . الذهبي في سير أعلام النبلاء ٢٣٠ : ٢٣٤ /٧ .

ومحمد الباقر[1] وجعفر الصادق[2]، لكن لم يصل إلينا أى من مذهب هؤلاء ووصل إلينا مذهب أبى حنيفة فكانوا جميعا لنا نجوماً وكان أبوحنيفة القمر الذى يتزينون به، فلولا أبوحنيفة لما وصل لنا علم: حماد. ولا مشايخه، أوقلت لما عرفنا شيئاً عن حماد، لكن أبا حنيفة أجبرنا على أن نعلمه ونعلم سيرته، ولما علمناه أجبرتنا سيرته على معرفة: حماد. ذاك الشخص الذى بلغ من العبقرية أن عبقرى عباقرة القرن الثانى الهجرى والذى لم يبلغ قدره أحد حتى الآن أقر بعظمته، حاله كحال الصبى الذى يترهل بين يدي أباه وينمو بصفات الأبوين.

فقد سأل ابن حماد أباه بعد غيبة طويلة عن الكوفة إلى أى الأشياء كان أشوق؟ فقال حماد: إلى أبى حنيفة ولو أمكننى ألا أرفع الطرف عنه لفعلت"كان أبوحنيفة يكثر السؤال ويستهم على الإجابة ويغتنم العلم كاغتنام الأسد للفريسة حتى أن: حماداً يقول:

---

(١) محمد الباقر: هو محمد الباقر بن على بن الحسين بن على بن أبي طالب، لقب بالباقر لإنه بقر العلم أى شقه فعرف أصله وخفيه، قيل عنه إنه كان يصلي في اليوم والليلة مائة وخمسين ركعة. الذهبي في سير أعلام النبلاء ٤٠٢ : ٤٠٦ / ٤ .

(٢) جعفر الصادق: هو جعفر بن محمد الباقر، قال عنه عمرو بن أبي المقدام:- " كنت إذا نظرت إلى جعفر بن محمد علمت انه من سلالة النبيين، ذكر له يوماً بخل المنصور فقال:- الحمد لله الذى حرمه من دنياه ما بذل لأجله دينه.

الذهبي في سير أعلام النبلاء ٢٥٥ : ٢٧٠ / ٦ .

"يا أبا حنيفة قد انتفخ جنبى وضاق صدرى"

وبنفس هذه الحماسة التي استحرت فى جسده حباً في العلم كان يقول في الديك الذى يصيح فينفرط مجلس الشيخ: حماد حيث انه العلامة بين حماد وأصحابه:

"يالك من ديك قبحك الله قطعت حديثنا، إن شر الديكة ما صاح أول الليل".

أما بداية مخالفة التلميذ لشيخه فقد كانا معاً في جنازة، فسأل رجل حماداً: إنى على دابة سيور وقد غابت الشمس ولست على الوضوء. قال له: تيمم لكن الرجل سأل أبا حنيفة فقال: سر وانتظر غيبوبة الشفق، فإذا خشيت ذلك فتيمم وصل، وسار الرجل فصادفه الماء فتوضأ.

فقد حكم أبوحنيفة بالصبر وأفتى: حماد. بالمنطق والمنطق لغة يتساوى فيها الجاهل والعالم على مائدة واحدة وقد ينفذ خلالها رأى الجاهل بجهله ويرتد رأى العالم لعلو منطقه عن منطق العوام، أما أبوحنيفة تكلم بعقل العالم الصابر في حكمه والمتأني في جوابه، أما الفتوى بالمنطق قد يلجأ إليها العالم بمضض[1]، فقد ضعف الإمام: مالك حديث رسول الله ﷺ "إذا ولغ الكلب في إناء أحدكم فليغسله سبعاً".

حينما حكم بالمنطق بانه يحل لنا أكل صيده، فكيف يكون غسل الإناء سبعا إذا ما ولغ فيه رغم أنه يحمل الصيد بفمه، وبناءاً على ذلك فملامسة

---

(١) المضض:الفقر ، و المقصود بها هنا : الاضطرار الشديد.

الكلب في مذهبه لا توجب إعادة الوضوء، لكن الحديث صححه كثير من العلماء وعلى رأسهم البخارى ثم ثبت علمياً بعد مئات السنين بوجوب غسل الإناء سبعا حتى يتم قتل الفيروسات التى يحملها الكلب في فمه.

علمه

فأبوحنيفة في عقله كالشواء إذ رمد يوماً بعد يوم حتى اشتد وهيجه فما عاد يجرؤ أحد على التجرأ عليه.

ففى هذا العقل وجد العلم تربة خصبة للنمو ففاض حتى تمادى المكيال، فقد توفى حماد عام ١٢٠ هـ فبقى تلاميذته بعده يبحثون عن شيخ جديد للحلقة العظيمة التى طالما جلس الناس يتعجبون من أهلها ويستمدون من أقوال شيخها أمور دينهم، فلم يجدوا سوى أبي حنيفة ليدفعوا إليه براية الفقه بينما أكتفوا بالجلوس بين يديه مقام التلميذ للمعلم.

فأبوحنيفة هواللقيف[١] الذى في حضرته تصبح كل الثواقب جُمّاح[٢] والفصيح الذى فى وجوده تصير زبرة الداعى[٣] هينمة [٤] فالرأى ما لم يوافق رأيه يصبح وسوسة لا ينتبه لها أحد، والوسوسةاذا خرجت منه فهي جلبة تملأ الأرض ضجيجاً فيسمعها من فى أدناها ليعلم أن أبا حنيفة قد أفتى في أعلاها.

---

(١) اللقيف: الشخص الحاذق الماهر.

(٢) جماح: سهم بلا نصل أى أنه ضعيف إصابة الهدف .

(٣) زبرة الداعي: أى صيحته.

(٤) هينمة: أى وسوسة.

فقد كان بالكوفة رجل يسب: عثمان بن عفان. في زمن كانت فيه الكوفة كما وصف عطاء بن أبي رباح: "الذين فرقوا دينهم شيعاً" وعجز العلماء عن إقناع الرجل بالعدول عن رأيه وتمادى الرجل حتى أنه كان يقول: عثمان بن عفان كان يهودياً.

ولما عجز العلماء بإقناعه بكف لسانه تقدم سيدهم، وإذا عجز العلماء عن شئ فكبيرهم موجود لكن إذا عجز كبيرهم فلا محاولة بعده تصلح، فأتى أبوحنيفة للرجل وقال: أتيتك خاطباً، قال الرجل: لمن؟ قال: لابنتك، رجل شريف غنى بالمال، حافظ لكتاب الله سخي يقوم الليل في ركوع، كثير البكاء من خوف الله قال: في دون هذا مقنع يا أبا حنيفة، قال: إلا أن فيه خصلة، قال: وما هى؟ قال: يهودي، قال: سبحان الله! تأمرنى أن أزوج ابنتي من يهود؟ قال أبوحنيفة: ألا تفعل؟ قال الرجل: لا، قال أبوحنيفة: فالنبى ﷺ زوج ابنته من يهودي ! أى من عثمان ﷺ الذى يزعمه الرجل كذلك، قال الرجل: أستغفر الله، إنى تائب إلى الله ﷻ.

فأبوحنيفة لم يكن ذهابه كسائر العلماء وإنما جمع معلومات عن الرجل قبل لقائه، فبتلك المعلومات علم أن للرجل ابنة تصلح للزواج، وبناءاً على المعلومات رسم الخطة التى سيتمكن بها من إفحامه وذهب إليه كخاطب يحمل موعظة العالم ولو ذهب إليه كعالم يحمل الموعظة لما تكلف الرجل عناء الاستماع، فإن الكره يصم الأذن ويقتل الفكر ويحجب رؤية الحق ويسد الطريق إلى التسامح، فإن ابن أبي ليلى لم يتحمل النقض حينما قضى في أمر أمرأة مجنونة قالت لرجل: - يا ابن الزانين، فأقام عليها الحد في المسجد قائمة

وحدها حدين، الأول لقذف أبيه، والثانى لقذف أمه فبلغ ذلك أبا حنيفة فقال: أخطأ فيها فى ست مواضع.

أقام الحد في المسجد، ولا تقام الحدود في المساجد، وضربها قائمة والنساء يضربن قعوداً، وضرب لأبيه حداً ولأمه حداً ولوأن رجلاً قذف جماعة كان عليه حد واحد، وجمع بين حدين ولا يجمع بين حدين حتى يخف أحدهما، والمجنونة ليس عليها حد، وحد لأبويه وهما غائبان ولم يحضرا فيدعيا[1].

أما أبن ليلى لم يتحمل هذا النقض وعوضاً عن مواجهة الحجة بمثيلتها استعان بقوة السلطان، فدخل على الأمير وشكا أبا حنيفة إليه، فحجر الأمير على أبى حنيفة وقال: لا يفت، فلم يفت أياماً، حتى قدم رسول من قبل ولى العهد، فأمر أن يعرض مسائل على أبي حنيفة حتى يفتي فيها، فأبى أبوحنيفة وقال: "أنا محجور على" فعند أهل الدنيا السلطان أحب من العالم وعند أهل الدين العالم أحب من السلطان وعندما يحتاج الناس إلى أمور دنياهم يطرقون أبواب الوالى لكن عندما يحتاجون إلى أمور دينهم ينتظرون العلماء في نواصى الشوارع يلتمسون منهم دقائق تجمعهم معاً، احتاج رسول ولى العهد لأبي حنيفة من أجل دين ولى العهد، فذهب الرسول إلى الأمير ليتشفع لأبي حنيفة فأذن له الأمير وقعد فأفتى بقول أبوحنيفة:

---

(١) ابن حجر الهيتمي في كتابه " الخيرات الحسان في مناقب الإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان"، ص٥٣ .

"إن ابن أبي ليلى ليستحل منى ما لا أستحله من حيوان"[١]

فقديماً كان: شريح بن الحارث الكندي يقول: أنا قاضى وليس مفتى والقاضي يطبق القانون، أما المفتى فهو من يضع القوانين.

ففى الكوفة مات رجل وأوصى إلى أبى حنيفة وهوغائب، وارتفع إلى ابن شبرمة فذكر ذلك له، وأقام أبوحنيفة البينة أن فلاناً مات وأوصى إليه، فقال ابن شبرمة: يا أبا حنيفة أتحلف أن شهودك شهدوا بحق؟ قال: ليس على يمين، كنت غائباً، قال: ضلت مقاييسك، قال أبوحنيفة: ما تقول في أعمى شج، فشهد له شاهدان بذلك، أعلى الأعمى أن يحلف أن شهوده شهدوا بحق، وهو لم ير، فأمام هذه الحجة لم يجد ابن شبرمة سوى الحكم بالوصية[٢].

لا غرو بحجة أبى حنيفة في وقت دانت له الدنيا لعلمه وسكنت الأصوات لكلامه، لكن تبقى الدهشة لبكور تلك النزعة عنده حتى كونه مجرد تلميذ يطرق أبواب العلماء قبل أن يقوض [٣] بيته من تدافع الناس نحوه وتشد الرحال إلى حلقته بتلك المسافات التى تعد بالأشهر في حسابات ظرف الزمان مع اللغب الذى يضيفه بعد الأبعاد التى تربط المدن.

---

(١) الذهبي في كتابه " مناقب الإمام أبي حنيفة وصاحبيه" ص ٤٢ .

(٢) ابن حجر الهيتمي في كتابه " الخيرات الحسان في مناقب الإمام الأعظم أبى حنيفة النعمان" ص ٥٥ .

(٣) يقوض: أي يهدم .

سُئل مالك عن أبى حنيفة فقال:

"لوجاء إلى أساطينكم هذه – يعنى أساوركم – وقايسكم على أنها خشب لظننتم أنها خشب"[١].

فهوبالكاد قد بقل وجهه ومرد شاربه حينما ناظر الشعبي وعطاء وسفيان فكانت الحجة معه ثم صار شخصه حجة على أهل الإسلام، فبه تفاخر المسلمون، واحتج أهل الكوفة على أهل البصرة.

يقول يوسف ابن خالد السمتى:"جالست أبا حنيفة سنتين ونصف فما سمعته لحن في حرف واحد"[٢]

وقال أيضاً: "كنت اختلف إلى عثمان البتي، وكان يذهب مذهب الحسن المعتزلى وابن سيرين فأخذت من مذاهبهم، وناظرت عليها، ثم استأذنت للخروج إلى الكوفة لتلقى مشايخها، والنظر في مذاهبهم والاستماع، فدلونى على سليمان الأعمش، لأنه أقدمهم في الحديث، وكانت معى مسائل في الحديث وكنت سألت عنها المحدثين، فلم أجد أحداً يعرفها، فذكرت ذلك في حلقة الأعمش فقال: - إيتوني به، فمضيت إليه، فقال: لعلك تقول: أهل البصرة أعلم من أهل الكوفة، كلا ورب البيت الحرام، ماذاك كذلك، وما أخرجت البصرة إلا قاصاً أومعبراً أونائحاً، والله لولم يكن بالكوفة إلا رجل ليس من

---

(١) ابن حجر الهيتمي في كتابه " الخيرات الحسان في مناقب الإمام الأعظم أبى حنيفة النعمان" ص ٣٢ . وذكره السيوطي في كتابه " تبييض الصحيفة في مناقب الإمام أبي حنيفة " ص ٢٥ ، دار الوعي بحلب .وكذلك الذهبي في سير أعلام النبلاء ٥/٢٢٦

(٢) الذهبي في كتابه " مناقب الإمام أبي حنيفة وصاحبيه" ص ٤٠.

عربها، ولكن من مواليها، يعلم من المسائل ما لا يعلمه الحسن ولا ابن سيرين ولا قتادة ولا البتى ولا غيرهم، وغضب على غضباً شديداً، حتى خفت أن يضربنى بعصاه، ثم قال لبعض من حضره: اذهب به إلى مجلس النعمان، فهو والله لو رأى أصغر أصحابه لعلم أنه لوقام أهل الموقف لأوسعهم جواباً، ودخل في قلبي من الرعب ما الله تعالى به عالم، فقام الرجل، واتبعته، فلما خرج من المسجد قال: النعمان يكون في بنى حرام فسل عنه، فإنه بهذه المسائل أعلم ولى شغل لا يمكن لي المصير إليه، فخرجت أسأل عنه قبيلة بعد قبيلة حتى أتيت بني حرام في آخر القبائل، وقد دخل وقت العصر، فإذا بكهل قد أقبل، حسن الوجه حسن الثياب وخلفه غلام أشبه الناس به، فلما دنا سلم، ثم صعد المئذنة، فأذن أذاناً حسناً، فتوسمت فيه أنه النعمان، ثم نزل فصلى ركعتين خفيفتين أشبه بصلاة الحسن وابن سيرين واجتمع نفر من أصحابه، وتقدم فأقام وصلى بهم صلاة أهل البصرة فلما سلم استند إلى المحراب، وأقبل بوجهه إلى الناس، فحياهم، ثم سأل كل واحد من أصحابه عن حاله، فلما انتهى إلى قال: كأنك غريب من أهل البصرة، وقد نهيت عن مجالستنا؟ قلت: نعم، قال: فما اسمك؟ فأخبرته باسمى ونسبى ثم سأل عن كنيتى، فأخبرته، فقال: أكنت من المختلفين إلى البتى؟ قلت: نعم، قال: لو أدركنى لترك كثيراً من قوله، ثم قال: هات ما معك، وأبدأ قبل أصحابك، فإن بك وحشة مغربة، وحق لمثلك من المتفقهة التقدم، ولكل داخل دهشة، ولكل قادم حاجة، فسألته عن المسائل التى كانت مشكلة على فأجابنى، فحكيت ما جرى بينى وبين الأعمش فقال: حفظك الله يا أبا محمد، يحب أن ينوه باسم ولده، ثم سكت، فقلت: ما تقول فيما اختلفوا فيه من القدر؟ قال: أهل

البصرة وأهل الكوفة اختلفوا فى القدر على ما علمت، وكبر عمرو عن الطوق، وهذه مسألة قد استصعبت على الناس، فأنى يطيقونها! هذه مسألة مقفلة قد ضل مفتاحها، فإن وجد مفتاحها علم ما فيها، لم يفتح إلا بمخبر من الله، يأتي بما عنده، ويأتى ببينة وبرهان، وقد فات ذلك والذى نقول قولاً متوسطاً بين االقولين: لا جبر ولا تفويض ولا تسلط، والله تعالى لا يكلف العباد بما لا يطيقونه، ولا أراد منهم مالا يعلمون، ولا عاقبهم بما لم يعلموا، ولا سألهم عما لم يعلموا، ولا رضى لهم بالخوض فيما ليس لهم به علم والله أعلم بما نحن فيه، والصواب الذى عنده ونحن مجتهدون، وكل مجتهد مصيب، إلا أنه لم يكلفهم الاجتهاد فيما ليس لهم به علم، الله ولى كل نجوى، وإليه رغبة كل راغب. وفقنا الله تعالى وإياك لما يحب ويرضى .

رحم الله أباحنيفة فقد كانت جفان [١] العلم وماوسقت تلتقي بصدره إلتقاء الإلهام بالملهم، امترقته عين السخيمة [٢] فنكصها خلف جفنه، وتكاثر عليه الكالح [٣] من الأرض، والمريد [٤] من جنباتها فألجمهم بعقله ودحضهم بحجته،فإليه يتهافت محبو العلم ونحوه يركض أهل الفقه.

---

(١) الجفان:الأوعية.

(٢) السخيمة:الحقد و الحسد.

(٣) الكالح:شديد البؤس.

(٤) المريد:شديد العتو.

تجارتـــه

اتخذ أبوحنيفة من دار: عمروبن حريث عاصمة يبث منها مبادئه فى أمور التجارة ويتاجر بمكاسبها مع خالقه فيبث أموالها لحاجات تلاميذه. فقد رأى صاحبه بيته عريان إلا من البواري.

قال صاحبه: لك عيال

قال أبوحنيفة: الله تعالى للعيال وإنما قوتي أنا في الشهر درهمان. ثم قرأ: ﴿ وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [الذاريات: ٢٢] (١)

ليس الزهد أن تعيش فقير وإنما الزهد أن تعرض عليك الشهوات فتتركها .

يقول أبويزيد البسطامي:

"ليس الزاهد من لا يملك شيئاً وإنما الزاهد من لا يملك قلبه شيئاً "(٢)

---

(١) ابن حجر الهيتمي في كتابه " الخيرات الحسان في مناقب الإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان" ص ٤٤.

وكذلك ذكر الذهبي في كتابه " مناقب الإمام أبي حنيفة وصاحبيه " ص ١٨ إنه كان إذا حلف بالله صادقاً تصدق بدرهم وإذا أنفق على عياله نفقة ينفق مثلها في سبيل الله.

(٢) يقول عبد الله بن المبارك: " ما رأيت أحداً أورع من أبي حنيفة" ، ما تقدرون أن تقولوا في رجل عرضت عليه الأموال العظيمة فنبذها"

ابن حجر في كتابه " الخيرات الحسان في مناقب الإمام الأعظم " ص ٤٤.

وقديماً زهد: عمر بن عبد العزيز. فمات دون أن يترك لعياله شيئًا سوى صلاحه، وصلاح الجد يكنف سابع حفيد بعكس هشام بن عبد الملك الذى ترك لعياله آلاف الدراهم من الذهب ثم دار الزمان رحاه واستدار الدهر بجنباته فأصبح أبناء هشام بن عبد الملك يتحففون بيوت أبناء عمر بن عبد العزيز ليسألوهم.

وقد جاء فى تاريخ بغداد:

"إن أبا حنيفة كان يجمع الأرباح عنده سنة إلى سنة فيشترى بها حوائج الأشياخ والمحدثين وأقواتهم وكسوتهم وجميع حوائجهم، ثم يدفع باقي الدنانير من الأرباح إليهم فيقول أنفقوا في حوائجكم، ولا تحمدوا إلا الله، فإني ما أعطيتكم من مالي شيئاً ولكن من فضل الله على فيكم "[1]

ويقول أبوحنيفة:

"ما ملكت أكثر من أربعة آلاف درهم منذ أكثر من أربعين سنة إلا أخرجته وإنما أمسكها لقول على رضى الله، أربعة آلاف فما دونها نفقة، ولولا أنى أخاف أن ألجأ إلى هؤلاء ما تركت منها درهماً واحداً"[2] قيل إن عقدة الفقر تلازم الفكر لكن الأحرى أن يقال إن المفكرين ينشغلون عن جمع المال بجمع الفكر وملأ العقل بالثقافة فيلازمهم الفقر، فملازمة الفقر للفكر قاعدة شذ

---

(١) ذكر ابن حجر الهيتمي في كتابه " الخيرات الحسان فبي مناقب الإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان" ص ٤٣.

(٢)) ابن حجر الهيتمي في كتابه " الخيرات الحسان في مناقب الإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان" ص ٤٢ : ٤٣.

عنها أبوحنيفة، وصداقة الفقر للعلم واجب رفض أبوحنيفة تأديته فقضى كرمه عنه ذلك.

فأبوحنيفة صنع المال بفكره وأعانه المال على نشر الفكر، فقد كان أبوحنيفة خزاز يجيد حياكة الفكر بالعلم والعلم بالعمل والعمل الدنيوي بالعمل الديني.

جاءته امرأة بثوب أرادت أن تبيعه بمائة درهم. فقال لها: هوخير من مائة بكم تقولين؟ فزادت مائة، مائة، حتى بلغ أربعمائة درهم. قال هوخير من ذلك، قالت: تهزأ بي؟ قال: هاتى رجلاً. فجاءت برجل فاشتراه بخمسمائة درهم[1].

هى التى ما رأت غطريفاً يغص عدلاً كأبي حنيفة، وأبوحنيفة كان قد أفتى بعدم جواز الوكيل أن يبيع لنفسه لكنه عين نفسه وكيلاً وباع للمرأة إلى نفسه فعدل وأجزل العطاء.

وجاءته امرأة، فقالت إنى ضعيفة، وإنها أمانة، فبعني هذا الثوب بما يقوم عليك، فقال: خذيه بأربعمائة دراهم، فقالت: لا تسخر بى وأنا عجوز، فقال: إنى اشتريت ثوبين فبعت أحدهما برأس المال إلا أربعة دراهم فبقى هذا الثوب على أربعة دراهم[2].

---

(١) ابن حجر الهيتمي في كتابه " الخيرات الحسان في مناقب الإمام الأعظم ابي حنيفة النعمان" ص ٤٥.

(٢) الذهبي في كتابه " مناقب الإمام أبي حنيفة وصاحبيه" ص ٤٢.

كان يحدد الثمن على أساس من الربح المعقول مضافاً إليه نفقات البيع ومصروفات نقله وتجهيزه، يقيس المكسب فلا ظلم ولا عدوان مذهبه في البيع يمنع الحاكم من التسعير في الأسواق لكن هذا في زمن كان أهل الحق يسعرون لأنفسهم وتحدد كل نفس لنفسها ما يحق لها أما أهل الباطل في الأزمان التالية كانوا يجتمعون لرفع الأسعار فيزداد معها التضخم مما استدعى اللجوء إلى المذهب الشافعي الذي يبيح للحاكم وضع الأسعار بحيث لا يجحف المشترى بالبائع ولا يجور البائع على المشترى .

جاء صديق إليه يطلب ثوب خز بوصف معين، فقال له: اصبر حتى يقع وآخذه لك، إن شاء الله، فما دارت الجمعة حتى وقع، فمر به الصديق، فقال له قد وقعت حاجتك، وأخرج إليه الثوب، فقال: كم إذن؟ قال: درهماً، قال: ما كنت أظنك تهزأ بي، قال: ما هزأت إنى اشتريت ثوبين بعشرين ديناراً أودرهماً وقد بعت أحدهما بعشرين ديناراً وبقى هذا بدرهم[1].

وجاءه رجل يطلب ثوب خز، فقال لابنه حماد: يا حماد أخرج ثوباً، فأخرج حماد ثوباً ونشره قائلاً: صلى الله على محمد. قال أبوه: مه قد مدحته، ورفض أن يبيعه[2].

مبادئ الشخص الواحد لا تتعدد أنواعها على المجموعة الواحدة، فهوصانع قوانين شنها على نفسه قبل أن يبدأ بغيره ليبسط لنا عظم قدره ويقدر لنا

---

(١) الخطيب البغدادى في كتابه " تاريخ بغداد " ١٣/٣٦٢.

(٢) الموفق المكي في مناقبه ١/١٩٨.

غلاف ننظر خلاله لرجل عظيم قد صنع عظماء تذوب الأرض تحتهم وينقشع الجهل لذكرهم، ترى سريرته بمجرد أن تبصر علانيته لا يزيغ عن الحق ولا ينملص[1] الحق عنه، إن شر الناس من تراه يظهر الفضيلة في قلب ملوث بالرذيلة.

"فمن لا يعلم كيفية الزراعة فلا يستطيع أن يعلمك الحصاد".

فلو لم يرَ التلميذ فى شيخه قدوة لما أطاعه، ولو لم ير الناس في الفقيه شدة في الدين لما سمعوا له.

فقد روى أن: عمر بن الخطاب. خطب يوماً وعليه ثوبان

فقال: أيها الناس ألا تسمعون؟

قال سلمان: لا نسمع

قال عمر: ولم. يا أبا عبد الله؟

قال: إنك قسمت علينا ثوباً ثوباً، وعليك ثوبان

قال: لا تعجل. ونادى: يا عبد الله! فلم يجبه أحد

قال: يا عبد الله بن عمر

قال: لبيك يا أمير المؤمنين

قال: نشدتك الله، الثوب الذى ائتزرت به أهو ثوبك؟

قال: اللهم نعم

---

(١) ينملص: يهرب.

قال سلمان: أما الآن فقل نسمع [١]

فلولم ير الناس زهد: عمر، ولولم يعلموا عدله وشدته في الحق لما تحملوا محاسبته لهم، ولما استطاع أن يشتد على خلق لوقيست بأحدهم مقاييس العظمة جميعاً لما وزنت أحد أظفار أحدهم التى يلقيها نحوالسباطة كخالد بن الوليد وأبوهريرة وعمروبن العاص ومجمع بن جارية .

ومن هذا المنهج تعلم أبوحنيفة فكان يقول لتلميذه أبي يوسف القاضى: "ولا ترضَ من العبادات إلا بأكثر مما يفعله غيرك فإن العامة إذا لم يروا منك الإقبال على الطاعات بأكثر مما يفعلونها يعتقدون فيك السوء وقلة الرغبة فيها، ويعتقدون أن علمك لا ينفعك ولا يفيدك إلا ما أفادهم الجهل الذى فيهم".

وكان أبوحنيفة يقول لأحد تلاميذه:

"إذا قامت المرأة من موضعها فلا تجلس فيه حتى يبرد"[٢]

منهج أَدَب أَدّب به أبوحنيفة أصحابه حتى بلغ قمة الزهد فكان يقول لأصحابه:

"من وصف خف امرأة كبيرة أوصغيرة فقد وصف قدمها ومن وصف قدمها لم يكن عدلاً".

---

(١) ذكره أبو الفرج الجوزي في كتابه " مختصر الحيلة " ، كذلك ذكره ابن القيم في كتابه " أعلام الموقعين" ٢/١٨٠ ، دار الجيل للطباعة.

(٢) الموفق المكي في مناقبه ٢/٩٥.

يقول عبد الحليم الجندى عنه:

"وكان تاجراً صناعته الفكر، ومفكراً يعمل في التجارة"[١]

وأضيف أنا إلى ما قاله:-

"كان تاجراً يبيع علمه بعقله قبل أن يشتريه بماله فيكون هؤلاء تلاميذته هم المستفيدون الوحيدون أمثال محمد ويعقوب وزفر، وكان عالماً يتسابق الناس إلى بيعه ليشتروا منه الأفكار قبل أن يتناولهم بكرمه فيعطيهم من حيث لا يحتسبون بلا حساب ".

وأخيراً: سبب فض شراكته مع: حفص بن عبد الرحمن. حيث أنه بعث بمتاع إلى حفص. وأعلمه أن في ثوب منه عيباً فبينه للناس فباع حفص المتاع ونسى أن يبين واستوفى ثمناً كاملاً لثوب غير كامل- قيل إن الثمن كان ثلاثين ألف- فأبى أبوحنيفة إلا أن يبعث لشريكه يكلفه أن يبحث عن المشترى، ولكنه لم يهتد إلى الرجل، فأبى أبوحنيفة إلا فصالاً من شريكه وتتاركا، ورفض أن يضيف الثمن إلى حر ماله وتصدق به كاملاً.[٢]

---

(١) عبد الحليم الجندي في كتابه " أبو حنيفة بطل الحرية والتسامح في الإسلام" ص ٣١.

(٢) الذهبي في كتابه " مناقب الإمام أبي حنيفة وصاحبيه" ص ٤١.

فقهـه

كان أبوحنيفة أول من أدخل الرأي في الدين سابقاً الجميع فتسابقت إليه الألسنة، بعضها اتهمه بالبدعة واتهمه الآخر بالزندقة وهذه الاتهامات لا تنم عن شيء إلا على مقدار عمق فهمه الذى سبق به الجميع وقوة فقهه التى لم يجارها أحد.

فطالما سخر الناس من: عباس بن فرناس. ثم جلسوا جميعاً في الطائرة يتعجبون من هذا الشئ الذى يختصر شهور من السفر في دقائق من الطيران، وكذلك تجرأ الجهال على أبي حنيفة وأساءوا تقدير عظيم قدره، وقدرة قدراته، وقدرات قدرته، ومقادير عقله.

يقول سفيان بن عيينة:-

"اثنان ما كنت أظنهما يجاوزان قنطرة الكوفة: فقه أبى حنيفة وقراءة خلف"[1]. فقد كان هذا رأى: سفيان. وهو بهذا الرأى ما رأى إلا بمد بصره، فما ظنكم لو كشف لسفيان بن عيينة. اللوح المحفوظ فرأى فقه الإمام أبوحنيفة يتبعه اليوم أكثر من سبعمائة مليون مسلم، وما ظنكم لو انسدلت عن عين سفيان بن عيينة ستائر الغيب فيغمس بصره بالبصيرة لير فقهه وفقه سفيان الثورى وجعفر الصادق والليث بن سعد.. إلخ.

---

(١) الذهبي في كتابه " مناقب الإمام أبي حنيفة وصاحبيه" ص ٣٢.

يرى أن فقه كل هؤلاء يندثر ويبقى فقه الإمام الأعظم. المستمع لأبي حنيفة فاقد للوعي أمام قوة حجته والقارئ لكتبه مصاب بالمضض[١] حتى يستيقظ من سكر جمال فكره المتتابع ككأس دهاق[٢].

فقد روى أن محمداً الباقر قال لأبى حنيفة:

"أنت الذى حولت دين جدى وأحاديثه بالقياس؟

فقال أبوحنيفة: معاذ الله، فقال محمد: بل حولته، فقال أبوحنيفة: اجلس مكانك، كما يحق لك، حتى أجلس، كما يحق لى، فإن لك عندي حرمة كحرمة جدكﷺ في حياته على أصحابه، فجلس، ثم جثا أبوحنيفة بين يديه، ثم قال: إنى سائلك عن ثلاث كلمات فأجبنى: الرجل أضعف أم المرأة؟ فقال محمد: المرأة، فقال أبوحنيفة: كم سهم للمرأة؟ فقال: للرجل سهمان، وللمرأة سهم، فقال أبوحنيفة: هذا قول جدك، ولو حولت دين جدك لكان ينبغي في القياس أن يكون للرجل سهم، وللمرأة سهمان لأن المرأة أضعف من الرجل. ثم قال: الصلاة أفضل أم الصوم؟ فقال الصلاة، قال هذا قول جدك، ولو حولت قول جدك لكان القياس أن المرأة إذا طهرت من الحيض أمرتها أن تقضى الصلاة ولا تقض الصوم، ثم قال: البول أنجس أم النطفة، قال: البول أنجس، قال: فلو كنت حولت دين جدك بالقياس لكنت أمرت أن يغتسل من

---

(١) المضض: المرض المتتابع.

(٢) كأس دهاق: متتابعة على شاربها.

البول ويتوضأ من النطفة، ولكن معاذ الله أن أحول دين جدك بالقياس، فقام محمد فعانقه وقبل وجهه وأكرمه[١].

فهو الذى بقر طلاسم الفقه حتى أخرج الحق من خاصرته، فكر حتى قدر، والتفكير مفتاح المعرفة كما التأمل سلم الوصول إلى الله. حينما سُئلَ نيوتن عن سر إكتشافه للجاذبية قال: كثرة التفكير.

فهؤلاء العظماء مهما اختلفت ديانتهم تجدهم لا يأبهون لسورة الوطاء [٢] لكنهم يخشون البقاء في أكناف الجهل وأوقات الهزل ولحظات التفاهة، هم الذين لا يعرفون الخلايا الدهنية[٣] ولا يهتمون لهرموناتها لكن التفكير عندهم يهيمن على الفكر فيظله بمخالبه، فلا يدعون التفكير وما تدعهم الأفكار.

دخل الضحاك بن قيس الخارجي عليه فقال: تب،

فقال أبوحنيفة: مم أتوب؟

قال: من تجويزك الحكمين،

فقال أبوحنيفة: تقتلنى أوتناظرنى؟

فقال: بل أناظرك؟

قال: فإن اختلفنا فى شئ مما تناظرنا فيه، فمن بينى وبينك؟

---

(١) ابن حجر الهيتمي في كتابه " الخيرات الحسان في مناقب الإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان" ص ٥٨.

(٢) الوطاء:يقوم بربط الجهاز العصبي بجهاز الغدد الصم عبر الغدة النخامية،و تقع به مراكز التحكم بالجوع و العطش،و المقصود بسورة الوطاء:كناية عن الجوع.

(٣) الخلايا الدهنية:خلايا تتخصص في تخزين الطاقة على هيئة دهون.

قال: اجعل انت من شئت،

فقال أبوحنيفة لرجل من أصحاب الضحاك: اقعد فاحكم بيننا فيما نختلف فيه إن اختلفنا،

ثم قال للضحاك: أترضى بهذا بيني وبينك،

قال: نعم، قال: فأنت قد جوزت الحكمين، فانقطع[١].

ودخل عليه رجل يوماً ليسأله عن مال عمسه ونسى مكانه، فأرشده أبوحنيفة إلى صلاة قيام الليل، فجاءه الرجل صباح اليوم التالي ليخبره أنه تذكر المال حيث أخفاه[٢].

إن فضل أبي حنيفة على سائر المسلمين كفضل الماء على سائر النباتات.

فقد كان العلم قُليب يأخذ منه الناس ذنوباً أوذنوبين لكن أبا حنيفة ران[٣] عليه كله حتى أنه لا يأخذ أحد علم قبل أن يمر ببئره ويتضلع[٤] من فقهه، فقد سأله رجل عن فتح خوخة في حائطه فقال: افتح ما شئت ولا تطلع على

---

(١) ابن حجر الهيتمي في كتابه " الخيرات الحسان في مناقب الإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان" ص٥٣.

(٢) ابن حجر الهيتمي في كتابه " الخيرات الحسان في مناقب الإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان" ص٥٤.

(٣) ران: استولى، منها قوله تعالى ﴿ كَلَّا بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ [المطففين: ١٤].

(٤) يتضلع:يشرب حتى يرتوي.

جارك وشكاه إلى ابن أبى ليلى فمنعه فعاد إلى أبي حنيفة فقال: افتح فيه باباً، فمنعه ابن أبى ليلى، فعاد الرجل إلى أبي حنيفة فقال أبوحنيفة له: كم قيمة الحائط؟

قال: ثلاثة دنانير

قال: اهدمه ولك على الثلاثة.

فجاء ليهدمه فرفعه الجار إلى ابن أبي ليلى فقال ابن أبي ليلى: يريد هدم حائطه وتسألنى أن أمنعه؟ اذهب فاهدمه واصنع ما شئت في جدارك.

قال الجار: كان فتح الخوخة أهون على[1].

"فليس كل من نزل الماء يستطيع أن يسبح ضد التيار"فلا كل من دخل بحار العلم صار فقيهاً، ولا كل من تفقه تمكن، ولا كل من تمكن بزخ اسمه على من حوله، لكنه النعمان فقط هو من وجد في عصر ضج بالعلماء، وتعلم مالا يتعلمه الأنداد، وتلقى ما لا يتلقاه الأشقاء حتى سنم[2] بنفسه فوق الجميع.

---

(١) ابن حجر الهيتمي في كتابه " الخيرات الحسان في مناقب الإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان" ص ٥٠.

(٢) سنم: أى ارتفع.

هو السميدع[١] الذى حنف[٢] إليه الجميع، والضيغم[٣] الذى ختع[٤] من بطش علمه الركيك[٥]، وهو الوتد الذى رك أمامه كل العظماء.

وقال عنه أحد الذين عاصروه:

"كان أبوحنيفة عجباً من عجب، وإنما يرغب عن كلامه من لم يقوعليه"[٦].

وقد جمعت بينه وبين زعيم المعتزلة: عمرو بن عبيد مناظرة، فظفر منه أبوحنيفة إذ ازدهاه النصر، فقال عمرو له: يا فتى تتكلم في مسألة من الشرع وتضحك! والله لا أكلمك بعد هذا أبداً.. فعمرو بن عبيد هو الذى قال فيه: الحسن البصري. لسائله: "لقد سألت عن رجل كأن الملائكة أدبته وكأن الأنبياء ربته".

إن قام بأمر قعد به، وإن قعد بأمر قام به، وإن أمر بشيء كان ألزم الناس به، وإن نهى عن شيء كان أترك الناس له، ما رأيت ظاهراً أشبه بباطن منه، ولا باطناً أشبه بظاهر منه .

---

(١) السميدع:السيد الكريم أو رئيس القوم.

(٢) حنف: مال وانضم.

(٣) الضيغم: الأسد.

(٤) ختع: هرب.

(٥) الركيك: الضعيف

(٦) ابن حجر الهيتمي في كتابه " الخيرات الحسان في مناقب الإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان" ص ٣٦.

يقول أبوحنيفة: فانقطع الكلام بيني وبينه رحمه الله وإنه نادم على ما فرط منه أبداً[١].

فأبوحنيفة ديدبان[٢] الشريعة من البدع وصاحب الرأى البديع في كل مستجد، وهولُبادة [٣] السنة من كل قاذف وحطيمة [٤] أهلها من كل سيف فقد قارع أبطال العلم في زمانه فما صمد له أحد، ولانت له العقول فيشكلها حسبما أراد ويجملها وقتما أحب.

يقول أبوحنيفة:-

"كنت أعطيت جدلاً في الكلام، وأصحاب الأهواء في البصرة كثير فدخلتها نيفاً وعشرين مرة وربما أقمت بها سنة أوأكثر أوأقل ظناً إن علم الكلام أجل العلوم"[٥].

فتلك العقلية الجدالية شكلت عنده القدرة على إفحام الآخرين، وعلمته إستخراج الحق بين حبال الباطل فكان جوابه حاضراً لكل سؤال، وسؤاله قائم بعد كل إجابة، فالناس في الصفات أنواع، وفي الشخصيات صفات، وفي

---

(١) البزازي الكردري في مناقبه ١/٢٥٢.

(٢) ديدبان: حارس أو رقيب .

(٣) لُبادة: ما يلبس من جلد للوقاية.

(٤) الحطيمة:الدرع الحصينة.

(٥) ابن حجر الهيتمي في كتابه " الخيرات الحسان في مناقب الإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان" ص ٢٧.

الأخلاق درجات وفي التفكير إتجاهات حيث يتخلل كل إتجاه عن الآخر مسافات غير مقدرة.

فمن العقول من يكتفي بمعرفة منهج معين دون الإستماع إلى الرأى الآخر، فهؤلاء أهل الحماقة ودائماً هم آخر من يدرك الحق إذا كانوا في كفة الباطل ولا يجيدوا مناقشة أهل الباطل إذا كانوا فى كفة الحق.

ومن العقول من ينكب إلى كل حزب مدافعاً عنه حينما يكون معه، مهاجماً له حينما يكون ضده وهؤلاء هم أهل الأمعية حيث أشبه بإناء فارغ ينضح بما يُلقي فيه، فلا يعقل إذا تكلم، ولا يفكر حينما يساير الركب، فقد يجلس مع حزبك اليوم ليقاتل أعدائك دون أن يدرى عن السبب الذى دفعه لتصديقك، وقد يجلس مع أعدائك غداً ليقاتلك دون أن يدرى عن السبب الذى دفعه لتكذيبك.

هؤلاء هم أتباع الرويبضة [1] وأنصار الحمق ووقود الكذب، فلا تدرى لهم عقلاً لتخاطبهم ولا تستطيع أن تعد لهم خطاباً لتقنعهم، هم الأتباع خلقوا ليسيروا فقط، إذا دفعتهم من صف إلى عمود يسيروا كما لودفعتهم من عمود إلى صف دون معرفة السبب أوالتفكير في النتيجة وهم عندي آخر أنواع العقول.

ومن العقول من يستمع إلى جميع الآراء ويفهم جميع الحجج فيجلس ليُرَكِب الأحداث معاً، ويفكر ليربط الأمور بحبل واحد، فيعرف ميزة كل حزب ومما

---

(١) الرويبضة : الرجل التافه ينطق في أمور العامة.

صُنِعَت، وعيب كل حزب ومما تكون، فهذه النوعية من العقول وحدها تستطيع أن تكون الرأى ونقيضه، والحجة وعكسها، تعرف الحق بمقدار ما تعرف متى وأين تلدغ الباطل، وتعلم الباطل بمقدار ما تعلم كيف تصيب الحق، فهذه أكمل العقول رأياً، وأجملها صواباً وأرجحها زكاءاً، هم رؤوس الحق ووقود حجته ومصباح أنصاره ومن تلك النوعية يعد أبوحنيفة.

فقد كان يلتقط العلم من الجميع، ومن كل صاحب قوة ولوانحرف في فكره وضل في معتقداته فيجني الطيب ويجرن [١] لعك الخبيث، فيتضلع [٢] من كل وعاء دون النظر إلى حامله حتى قيل إنه راسل بعض علماء المعتزلة كعثمان البتى، وتلقى العلم عن بعض علماء الشيعة كجابر بن يزيد الجعفى. بالرغم من قوله: "ما رأيت فيمن رأيت أكذب من جابر الجعفي". لكنها العقلية الجدالية التى تحتم عليه سماع كل الآراء حتى يتمكن من الرد عليها.

فقد روى أبويوسف أن أبا حنيفة قال:

"وإذا كلمت القدرى، فإنما هوحرفان "إما أن يسكت، وإما أن يكفر، يقال له: هل علم الله في سابق علمه أن تكون الأشياء، كما هى فإن قال: لا فقد كفر وإن قال: نعم، أفأراد أن تكون كما علم، أوأراد أن تكون بخلاف ما علم؟ فإن قال: أراد أن تكون كما علم، فقد أقر أنه أراد من المؤمن الإيمان، ومن الكافر الكفر، وإن قال: أراد أن تكون بخلاف ما علم، فقد جعل ربه متمنياً متحسراً،

---

(١) جَرَن : تعود أمراً ومرن عليه.

(٢) تضلع: شرب حتى ارتوى.

لأن من أراد أن يكون ما علم أنه لا يكون، أولا يكون ما علم أنه يكون، فإنه متمن متحسر ومن جعل ربه متمنياً متحسراً فهو كافر . ويقول أبوحنيفة في القدر: "أما علمتم أن الناظر في القدر كالناظر في شعاع الشمس كلما ازداد نظراً ازداد حيرة".

فقد كان عقله حاد كاللهزم [١] حيث يلهز[٢] قحف [٣] معاشر أخفاء الهام[٤] بقوة حجته وينهال عليهم بفدح علمه ويهزمهم بسداد رأيه، فإذا أشرع [٥] كاشح[٦] نحوه فهويرمي بأفوق ناصل[٧]، وإذا جاءه أهل اللدد[٨] من حيث الطريق الأود[٩] جاءهم أبوحنيفة بالصوة [١٠] التى تعيدهم إلى الطريق

---

(١) اللهزم: السيف.

(٢) يلهز: يلدغ

(٣) قحف: أعلى الرأس.

(٤) معاشر أخفاء الهام: أي لا عقل لهم.

(٥) أشرع: سدد ورمى.

(٦) كاشح: عدو مبغض.

(٧) أفوق ناصل: كناية عن عدم دقة الرمي.

(٨) اللدد: الخصومة الشديدة.

(٩) الأود: الإعوجاج.

(١٠) الصُّوَّة: الحجارة التى تنصب كدليل يستدل به على الطريق الصحيح.

الغراء[١] قبل أن يفقدوا في مفارز وسهوب الفلاة[٢] المحملة بعقنقل[٣] المارقين[٤].

فقد روى الخطيب: إن أبا العباس الطوسى كان سيء الرأى في أبى حنيفة، وكان أبوحنيفة يعرف ذلك، فدخل أبوحنيفة على أبى جعفر وكثر الناس، فقال أبوالعباس: اليوم أقتل أبا حنيفة فأقبل عليه، فقال: يا أبا حنيفة، إن أمير المؤمنين يأمر الرجل منا بضرب عنق الرجل، لا يدري ما هو أيسعه أن يضرب عنقه، فقال: يا أبا العباس، أمير المؤمنين يأمر بالحق أم بالباطل؟ قال: بالحق قال أبوحنيفة: أنفذ الحق حيث كان، ولا تسل عنه، ثم قال أبوحنيفة لمن قربه: إن هذا أراد أن يوثقنى فربطته[٥].

حاول المساييح والمذايع أن ينالوا منه فما زادوه إلا عظمة، فالفضائل بنار الحقد تظهر طيبها والحلم لولا كيد الحُساد ما عُرف .

---

(١) الطريق الغراء: النيرة الواضحة.

(٢) سهوب الفلاة: الفلاة هى الصحراء، ومسهوب القلاة أى مسالكها.

(٣) عقنقل: الكثيب من الرمال.

(٤) المارقين: الخارجين عن الدين.

(٥) ابن حجر الهيثمي في كتابه " الخيرات الحسان في مناقب الإمام الأعظم ابي حنيفة النعمان " ص ٥٦.

أراد الطوسي التقرب إلى أبى جعفر برأس أبى حنيفة معتقداً أن أبا حنيفة الذى وجد لكل ضيق مخرجاً سيعجز عقله عن الخروج من حصار سؤال كهذا فى موضع كذلك.

فلولا الجهل ما بنى الظالمون عروشهم على أجساد الضعفاء، ولولا الجبناء ما تميز الشجعان، ولولا الحُمق ما تأذى العلماء، ولولا تولى من ليس للأمر أهله لما شهد العالم الإسلامي سِنَة تأخر.

فالعالم كالدغل[١] ترى من يحضر درسه داغلاً [٢] له، وترى من يسبه جاهلاً قدره، وتجد من يتجرأ عليه جهلاً بعلمه لكن يبقى العلماء راسخون بعلمهم ثابتون في الأرض بحجتهم.

فقد حكم الدهر على أعداء أبى حنيفة بالثبور[٣] بينما بقى أبوحنيفة في الفؤاد مساكنه ليجري حبه واحترامه في الدماء جيلاً بعد جيل وليخلد علمه في العقل من حفيد إلى حفيد، وضع نفسه بين عظماء التاريخ ويعاسيب [٤] الفقه فاسمه بالأخلاق الرغيبة مقترن والآثار المحمودة منوط، تجد التاريخ لاط بينه وبين مكارم الأخلاق.

---

(١) الدغل: الشجر الكثيف المرتفع.

(٢) داغلاً له: أي يكمن له السوء.

(٣) الثبور: الهلاك، منها قوله تعالى ﴿ فَسَوْفَ يَدْعُواْ ثُبُورًا ﴿١١﴾ ﴾.

(٤) يعاسيب: مفردها: يعسوب: ، يعسوب قومه: أى رئيسهم.

فعندما نزل أبوالعباس بالكوفة توجه إلى العلماء، فجمعهم، فقال: إن هذا الأمر قد أفضى إلى أهل بيت نبيكم، وجاءكم الله بالفضل، وأقام الحق وأنتم معاشر العلماء أحق من أعان عليه، ولكم الحباء والكرامة والضيافة من مال الله ما أحببتم، فبايعوا بيعة تكون عند إمامكم حجة لكم وعليكم وأماناً في معادكم، لا تلقوا الله بلا إمام، فتكونوا ممن لا حجة له. فنظر القوم إلى أبى حنيفة، فقال: إن أحببتم أن أتكلم عنى وعنكم.

قالوا: قد أحببنا ذلك قال: "أحمد الله الذى بلغ الحق من قرابة نبيه ﷺ وأمات عنا جور الظلمة، وبسط ألسنتنا بالحق. قد بايعناك على أمر الله، والوفاء لك بعهدك إلى قيام الساعة. فلا أخلى الله هذا الأمر من قرابة نبيه ﷺ".

فأجابه أبوالعباس قائلاً:

"مثلك من خطب عن العلماء، لقد أحسنوا اختيارك، وأحسنت في البلاغ".

فلما خرجوا قالوا له: ما أردت بقولك إلى قيام الساعة؟

قال: - فإن احتلتم على احتلت عليكم وأسلمتكم للبلاء، فسكت القوم وعلموا أن الحق ما فعل.

أبوحنيفة ذاك الكنز الذى أكتنز[١] عسجد[٢] العلم في حضرته فاستتر خلف علمه أهل السنة في مواجهة ولوغ[٣] الأعداء.

---

(١) أكتنز: جمع.

(٢) عسجد: ذهب.

(٣) ولوغ: مكائد.

فلو لم يعلم العلماء قدره لما تنازل أحدهم عن حق الكلام في جلسة سيخلدها التاريخ وسيذكرها جميع خلفاء الدولة العباسية .

قال عنه الإمام مالك:

"كانت كلماته قطرات من البلور المذاب تهب عليها نفحة الرسول الذى قالت عنه أم معبد: (كأن منطقه خزازات، نظم يتحدون)

وقال عنه الإمام مالك أيضاً:

"ولوحدثك عن السارية أنها من ذهب لقام بحجته"[١].

وجاء إليه سعيد بن أبى حجر يجادله فلما تلقى أبوحنيفة المنطق بالحجة والعلم بالعلوم والدليل بالأدلة خيف أمامه يبوط الرأى بين يديه قائلاً "يا أبا حنيفة كل ما أخذناه تفاريق من قوم وجدناه عندك جملة "

وكان مسعر بن كدام يترك تلاميذه ليجلس في حلقة أبى حنيفة فيقول له تلاميذه: نحن نسألك عن الأحاديث وأنت تجلس إلى أهل البدع؟ [٢]

فيجيب مسعر: لوقام أصغر من فيهم لأهل الموسم لوسعهم علماً[٣]. فجلوس عالم بين يدي عالم لا يكون إلا أن يقوم أحدهم مقام النافع والآخر مقام المنتفع.

---

(١) الذهبي في كتابه " مناقب الإمام أبي حنيفة وصاحبيه" ص ٣١. كذلك ابن حجر في كتابه " الخيرات الحسان في مناقب الإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان" ص ٣٢.

(٢) ذكر السيوطي في كتابه " تبييض الصحيفة في مناقب الإمام أبي حنيفة" ص ٣٣ عن ابن المبارك قول : " رأيت مسعراً في حلقة أبي حنيفة وهو جالس بين يديه يسأله ويستفهم منه.

(٣) ذكره السيوطي في كتابه"تبييض الصحيفة" ص ٣٣ عن ابن مبارك.

ولا يكون هناك نافع وآخر منتفع إلا بعد أن يكون أحدهم يملك ما يفتقده الآخر، فقد كان: أحمد بن حنبل. يتعلم فقه الإمام الشافعى، وكان الشافعي يسأل الإمام: أحمد عن الأحاديث، فليس هناك من يملك العلم منفرداً، يقول ابن عباس: لم أعلم تفسير قوله تعالى: ﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ۝١ ﴾ [الإنفطار: ١] إلا عندما اختصم أعرابيان، فقال أنا فطرتها أولاً وقال الآخر أنا فطرتها أولاً.

وذكر رجل لأبي حنيفة إن الشعبي قال: "لا أدري نصف العلم"فرد عليه أبوحنيفة فقال: "فليقلها مرتين ليكون له كل العلم".

ويقول الإمام مالك: "إنى لأفكر في مسألة منذ بضع عشرة سنة فما اتفق لى فيها رأى إلى الآن"[١].

وسُئِلَ مالك أربعين سؤالاً فقال عن ستة وثلاثين سؤالاً منها: لا أدري[٢] ولكن ماذا لوقال الجميع: لا أدري ماذا لوأتقن الجميع: لا أدرى

من لهؤلاء الذين يريدون من يمد لهم يد النجاة لينقذهم من النار عابراً بهم السراط ليكنفهم بنعيم الآخرة.

---

(١) ذكره الحطاب الرعيني المالكي في كتابه " تحرير الكلام في مسائل الالتزام" ص ٥ ، دار الكتب العلمية.

(٢) أبي بكر محمد بن عبد الله (ابن العربي المعافري) في كتابه " المسالك فى شرح موطأ الإمام مالك " الجزء الأول ص ١٣، دار الكتب العلمية.

وفي رواية أخرى للهيثم بن جميل قال:- " سمعت مالكاً سئل عن ثمان وأربعين مسألة فأجاب في اثنين وثلاثين منها: لا أدري.

أبوحنيفة وحده من يستطيع فض الحُجُب واختراق الأسوار وكسر حاجز الجهل بسداد الراى المحاط بعظيم الفقه.

أبوحنيفة وحده من يستطيع التصدي لفتنة العلماء بقوة حجته واستبدال لا أدرى. بأنى أرى.

فهو الأشدق[١] الذى لا تستطيع أذن أن تُصَم أمام عبقريته، والعبقري الذى أفرى[٢] حتى فَرِىَ[٣] كل من طارحه[٤].

قال عنه عيسى بن موسى: هذا عالم الدنيا اليوم[٥] ". ولو أفضى الله إليه البصيرة لقال: "هذا عالم الدنيا حتى قيام الساعة "

قيل له: يا أبا حنيفة هذا الذى تفتى به هوالحق الذى لاشك فيه

فقال أبوحنيفة: والله لا أدرى لعله الباطل الذى لاشك فيه.

وعندما اجتمع الفقهاء لدى الأمير يستفتيهم، فأدلى كل برأيه، وأدلى أبوحنيفة برأيه، وأدلى الحسن بن عمارة برأيه .

---

(١) الأشدق: الفصيح.

(٢) أفرى: أي جاء بالأعاجيب، منها قوله تعالى ﴿قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾﴾

(٣) فَرِىَ: بُهت وتحير.

(٤) طارحه: جادله.

(٥) ابن حجر في كتابه " الخيرات الحسان في مناقب الإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان " ص ٣١. وكذلك ذكر السيوطي في كتابه " تبييض الصحيفة في مناقب الإمام أبي حنيفة " ص ٣٤ لكنه ذكر ان صاحب مقولة: " هذا عالم الدنيا اليوم " هو المنصور.

فقال أبوحنيفة: أخطأنا وأصاب الحسن

وقال الحسن: لو شاء أن يقيم قوله ويردنى من قولي لأمكنه، فعلمت أنه ليس أورع منه.

فقد عبد إبليس الله ستة آلاف سنة فأضاع الكبر عبادته في ساعة، كان إبليس من الجن فبلغ رتبة الملائكة بعبادته وخسف التكبر به مقاماً وضيعاً ليضعه في ريادة ألعن المخلوقات.

فإذا وجدت العالم ينتظر شكراً أو يريد اقتراض ثناء فلا تأخذ منه علماً فإنك لا تجد أحداً من العالمين يتعصب لشئ من الأشياء إلا عن علة تحتمل تمويه الجهلاء، أما أبوحنيفة فقد وصفه أبويوسف بإنه كان يغتم لمن يشكره.

فإذا أعتبرنا أن أبا حنيفة البحر، وأخذنا بقول عمروبن العاص. في وصف البحر: "الناس فيه كدود على عود ". لكان الدود هم علماء القرن الثانى في كثرتهم مع عظم هيبتهم ولكن يبقى أبوحنيفة العود الذي إن مال خرق القلوب وإن عدل أزاغ العقول قال عنه الحسن بن عمارة آخذاً بركابه:

"والله ما أدركنا أحداً تكلم في الفقه أبلغ ولا أصبر ولا أحضر جواباً منك وإنك لسيد من تكلم في الفقه فى وقتك غير مدافع، وما يتكلمون فيك إلا حسداً"[1].

---

(١) ذكره السيوطي في كتابه " تبييض الصحيفة في مناقب الإمام أبي حنيفة" ص ٣٤، دار الوعي بحلب.

كذلك ذكره ابن حجر الهيثمي في كتابه " الخيرات في مناقب الإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان" ص ٣٥.

فقد شكك الناس في فقه أبى حنيفة وعاداه من عاداه ولكن ها نحن بعده بمئات السنين لا نذكر أبا حنيفة إلا بالثناء عليه، ولا نذكر أعداءه إلا باللعنة والتقبيح على كل من تجرأ على الإمام الأعظم. قال ابن عبدالبر:"كان أبوحنيفة يحسد وينسب إليه ماليس فيه ويختلق عليه مالا يليق به"

قيل له: "يا أبا حنيفة هذا الذى تفتي به هو الحق الذى لا شك فيه، فقال: والله لا أدري لعله الباطل الذى لاشك فيه"وقال زفر: "كنا نختلف إلى أبى حنيفة ومعنا أبويوسف، ومحمد بن الحسن، فكنا نكتب عنه، فقال يوماً لأبي يوسف :-

"ويحك يعقوب لا تكتب كل ما تسمعه منى، فإني قد أرى الرأى اليوم فأتركه غداً، وأرى الرأى غداً فأتركه بعد غد"[1].

وكان يقول: - "قولنا هذا رأى، وهو أحسن ما قدرنا عليه، فمن جاءنا بأحسن من قولنا، فهو أولى بالصواب منا".

اعتبر الخوارج أن أبا حنيفة من المرجئة لأنه لا يكفر الناس بمعصية. عن أبى مقاتل سمعت أبا حنيفة يقول:

"الناس عندنا على ثلاث منازل، الأنبياء من أهل الجنة، ومن قالت الأنبياء أنه من أهل الجنة، فهو من أهل الجنة، المنزلة الأخرى المشركون نشهد عليهم أنهم

---

(١) الخطيب البغدادي في كتابه " تاريخ بغداد " ١٣/٤٠٣.

من أهل النار، والمنزلة الثالثة المؤمنون نقف عنهم، ولا نشهد على واحد منهم أنه من أهل الجنة، ولا من أهل النار، ولكنا نرجولهم ونخاف عليهم.

ونقول كما قال الله تعالى: ﴿ خَلَطُواْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ﴾ [التوبة: ١٠٢] حتى يكون الله ﷻ يقضي بينهم، وإنما نرجولهم، لأن الله ﷻ يقول: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [النساء: ٤٨] ونخاف عليهم بذنوبهم وخطاياهم، وليس لأحد من الناس أوجب له الجنة، ولوكان صواماً قواماً غير الأنبياء، ومن قالت فيه الأنبياء إنه من أهل الجنة"أما قول: غسان المرجئ. بأن أبا حنيفة من المرجئة فما هى إلا محاولة التاجر لتزيين بضاعته والإدعاء بما ليس فيها، كما فعل إسماعيل بن حماد بن أبى حنيفة بقوله: "القرآن مخلوق، وهورأيي ورأي آبائي"فرد عليه بشر بن الوليد: "أما رأيك فنعم، وأما رأى آبائك فلا "وقد أستغل خصوم أبى حنيفة تلك القولة فأسردوا الروايات وقالوا عنه: "إنه قال بخلق القرآن واستتابه الفقهاء من ذلك مرتين: في المرة الأولى يوسف بن عمر، وفي المرة الثانية ابن أبى ليلى ".

ابنك من جسدك قد يذهب ريحك سُدى وابن من غيرك جعلته لك قد يطمو[1] بك وبه إلى أبعد الآفاق، ويرفعك إلى أعلى الدرجات،فقد أساء إسماعيل بن حماد بن أبى حنيفة إلى جده بتلك القولة.

---

(١) يطمو: يرتفع.

وما علم ابن أبى ليلى أو غيره عند أبي حنيفة إلا كقطرة المطر من السحابة العظيمة، وهل يصح لمن اعتاد الخطأ أن يدعي العقل على من اعتاد الصواب؟ فمثل تلك الاتهامات ما هى إلا هرطقة نبعت من قلوب شاذة عمستها [١] السخيمة [٢]، فحملة تشويه الرموز تلك سنة من سنن الله، وهو كلام غريب شكلاً عجيب مضموناً، فلو أن المعتزلة كسبوا صوت أبى حنيفة بجانبهم وتوافق معتقده بمعتقدهم لما استطاع أن يردعهم رادع ولما احتاجوا مقاتلة الإمام أحمد للقول في خلق القرآن، فحينما يجالسك سيد الفقهاء فأنت لست بحاجة إلى فقيه، فلو أن قولاً خرج من الإمام الأعظم فأنت لست بحاجة إلى رأى إمام آخر.

فأبوحنيفة صاحب جهد جهيد، وفضل مديد، وصبر عتيد، وتواضع شديد، يحوي في ذؤابته مناهل علم لا تنضب ولوتضلع منها العلماء جميعاً، تراه حيدان[٣] يجلخ[٤] بالفتن فينزح عنه المنافقون وينقض على البدع والأهواء بالتوى[٥] ما كان ليتهم بمثل هذا.

---

(١) عمستها: طمستها.

(٢) السخيمة: الحقد.

(٣) حيدان:فيضان.

(٤) يجلخ: يجرف.

(٥) التوى: الهلاك.

جاء في تاريخ بغداد: "أما القول بخلق القرآن، فقد قيل أن أبا حنيفة لم يكن يذهب إليه".

يقول أبويوسف القاضى:

"جاء رجل إلى مسجد الكوفة يوم الجمعة يسألهم عن القرآن وأبوحنيفة غائب بمكة، فاختلف الناس في ذلك، والله ما أحسبه إلا شيطاناً تصور في صورة الإنس حتى انتهى إلى حلقتنا فسألنا عنها وسأل بعضنا بعضاً، وأمسكنا عن الجواب وقلنا: ليس شيخنا حاضراً ونكره أن نتقدم بكلام، حتى يكون هو المبتدئ فلما قدم أبوحنيفة قلنا له بعد أن تمكنا منه ﷺ: إنه وقعت مسألة فما قولك فيها؟ فكأنه كان في قلوبنا، وأنكرنا وجهه، وظن أنه وقعت مسألة معينة، وأنا قد تكلمنا فيها بشئ، فقال: ما هى؟ قلنا: كذا وكذ فأمسك ساكتاً ساعة، ثم قال: فما كان جوابكم فيها؟ قلنا: لم نتكلم فيها بشئ وخشينا أن نتكلم بشئ فتنكره، فسرى عنه وقال: جزاكم الله خيراً احفظوا عني وصيتى: لا تكلموا فيها ولا تسألوا عنها أبداً، انتهو إلى أنه كلام الله ﷻ بلا زيادة حرف واحد، ما أحسب هذه المسألة تنتهي حتى توقع أهل الإسلام في أمر لا يقومون ولا يقعدون معه[1]، وقال لسائله يوماً:

(١) ابن عبد البر في كتابه " الانتفاء فى فضائل الأئمة الثلاثة الفقهاء" ص ١٦٥- ١٦٦.

"لا تسألني عن أمر الدين وأنا ماشٍ أوأحدث الناس، أو نائم أو متكئ فإن هذه الأماكن لا يجتمع فيها عقل الرجل"[١].

ومن أقواله لتلاميذه: "لا تحدث بفقهك من لا يشتهيه فتؤذي جليسك. ومن قطع عليك حديثاً فلا تعده فإنه قليل المحبة للعلم".

وكان إذا أراد أن يصلى من الليل تزين حتى يسرح لحيته، مؤثراً أن يسجد لله وهوفي زينته، ولوكان مستخفياً في الظلام. وكان له ثوب ثمنه ألف وخمسمائة درهم يلبسه حينما يصلى قيام الليل، فقيل له: إنما يلبس الناس هذا اللباس إذا لقوا سلطاناً أواجتمعوا في مجمع عظيم. فقال: التزين لله ﷻ أولى من التزين للناس .

فالثياب الفاخرة ما كانت لتجهل إمام المسلمين الأعظم، ومثل تلك الأمور لاتنبع إلا من قلب وافق جوفه فعله، فالإمام مالك كان إذا حدث توضأ، وجلس على صدر فراشه، وتمكن في جلوسه بوقار وهيبة ثم حدث، فقيل له فى ذلك، فقال: أحب أن أعظم حديث رسول الله ﷺ ولا أحدث به إلا متمكناً على طهارة، وكان يكره أن يحدث على الطريق أو قائماً، أومستعجلاً[٢] ، ويقول: أحب أن أتفهم ما أحدث به عن رسول الله ﷺ وكان لا يركب في المدينة مع

---

(١) ابن حجر الهيثمي في كتابه " الخيرات الحسان في مناقب الإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان" ص ١١٥ ، دار الأرقم بن أبي الأرقم.

(٢) أبو نعيم الأصبهاني في كتابه حلية الأولياء رقم ٨٩٧٨

ضعفه وكبر سنه ويقول: "لا أركب فى مدينة فيها جثة رسول الله ﷺ مدفونة[1].

وحينما عذبه ابن هبيرة وأوجعته السياط قال عن أمه: "والله ما أوجعتنى السياط قدر ما آلمتنى دموعها"وقالت له أمه: "ما خير علم يضيعك هذا الضياع، قال: "يا أماه إنهم يريدوننى على الدنيا، وإنى أريد الآخرة، وإنى اختار عذابهم على عذاب الله[2].

إنما يُتجنب عذاب الله لخشيته، ومن لا يأمن العقوبة لا يسئ الأدب. وأبوحنيفة أحد هؤلاء القلائل الذين لا يخشون في الله شيئا.

فقد جمع المنصور أبا حنيفة ومالك وابن أبى ذؤيب يسأله عن الخلافة فقال أبوحنيفة له: "المسترشد لدينه يكون بعيد الغضب، إن أنت نصحت لنفسك علمت أنك لم ترد الله باجتماعنا، فإنما أردت أن تعلم العامة أنا نقول فيك ما تهواه مخافة منك ولقد وليت الخلافة وما اجتمع عليك اثنان من أهل الفتوى، والخلافة تكون باجتماع المؤمنين ومشورتهم".

أما ما روى بأن الأمير نهاه عن الفتيا فانتهى، ثم جاءه ولده حماد يسأله عن مسألة في داره فلم يجبه، فقال: يا أبت مالك لا تجيبنى قال: "أخاف أن يسألنى السلطان هل أجبت أحداً فلا أستطيع أن أقول شيئاً "فما هى إلا موافقة

---

(١) ابن خلكان في كتابه " وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان " ٤/١٣٥.

(٢) الكردي في مناقبه ٢/٦٠٥ .

ظاهر رجل لباطنه وملائمة فعل لقول، ومثل هذا الأمر لا ينبع إلا من رجل لا يهتم لأمر البشر لكن شغله الشاغل رضا ربه.

يقول أبوحنيفة: "رأيت المعاصي مذلة، فتركتها مروءة فصارت ديانة"[١].

فقد شاء القدر أن يقدر لأبي حنيفة الوجود في زمن تعددت فيه الأطياف، ومثل هؤلاء لا يمكن التصدي لهم إلا بشجاعة كتلك.

فقد روى أنه التقى بعطاء بن أبى رباح في مكة فسأله عطاء: من أين أنت؟ قال: من أهل الكوفة. قال عطاء: من أهل القرية الذين فرقوا دينهم شيعاً؟ قال: نعم، فسأله عطاء: فمن أى الأصناف أنت؟ قال: ممن لا يسب السلف، ويؤمن بالقدر، ولا يكفر أحداً بذنب، فقال له عطاء: عرفت فألزم [٢].

فمن الكوفة خرج الخوارج الذين ضاقت عقولهم وغلفت قلوبهم، فلم يخضعوا لفتوى، ولم تتسع عقولهم لحجة، تنطعوا في الدين بقدر ما غاصت علومهم فيه، وجدب [٣] المنطق عنهم بقدر ما جُدبت الحكمة عن فعلهم، وقد قالوا لأبى حنيفة في أحد مناظراته يوماً: "وكيف نغمد سيوفنا ونحن نحتسب الأجر الجزيل بإغمادها في رقبتك ".

---

(١) ابن حجر الهيثمي في كتابه " الخيرات الحسان في مناقب الإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان " ص ٦٤.

(٢) أبو نعيم الأصبهاني في كتابه " حلية الأولياء" رقم ٤٣٨٤.

(٣) جدب: انحسر .

وهؤلاء مقصد أبى حنيفة في قوله لعطاء: "ممن لا يسب السلف "[1] حيث غرهم سوء الخلق ودفعهم ضيق العقل إلى التجرأ على عثمان وعلى ﷺ فكان منهم من يقاطع عليًا في خطبته، ومنهم من يقاطعه في صلاته، ومنهم من يتحدى المسلمين محتسبًا لله في ذلك ظانًا أنه قربة يتقرب بها الى الله. وقد ناظرهم ابن عباس بحروراء وذكروا سبب إنكارهم على: على ﷺ بأنه حكم الرجال في أمر الله وأنه قاتل ولم يسب ولم يغنم، وأنه محا نفسه من أمير المؤمنين (يقصدون الصلح مع معاوية).

فقال ابن عباس:

أما قولكم: حكم الرجال في أمر الله، فإنى أقرأ عليكم في كتاب الله أن قد صير حكمه إلى الرجال فى ثمن ربع درهم، فأمر الله تبارك وتعالى أن يحكموا فيه، أرأيت قوله تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡتُلُواْ ٱلصَّيۡدَ وَأَنتُمۡ حُرُمٞۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدٗا فَجَزَآءٞ مِّثۡلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحۡكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ ﴾ [المائدة: ٩٥]

ورد عليهم في الثانية فقال:

---

(١) يقول سعيد بن أبي عروبة :"قدمت الكوفة فحضرت مجلس أبي حنيفة ، فذكر يوماً عثمان بن عفان فترحم عليه، فقلت له:و أنت يرحمك الله ، فما سمعت أحدا في هذا البلد يترحم على عثمان بن عفان غيرك".

"أما قولكم قاتل ولم يسب ولم يغنم، أفتسبون أمكم عائشة؟ تستحلون منها ما تستحلون من غيرها وهى أمكم؟ فإن قلتم: إنا نستحل منها ما نستحل من غيرها فقد كفرتم، وإن قلتم: ليست بأمنا فقد كفرتم قال تعالى:

﴿ ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡۖ وَأَزۡوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمۡۗ ﴾ [الأحزاب: ٦]

ورد عليهم في الثالثة فقال:

أما قولكم: محا نفسه من أمير المؤمنين، فأنا آتيكم بما ترضون، قد سمعتم أن نبى الله ﷺ يوم الحديبية صالح المشركين، فقال لعلى: "اكتب يا على: هذا ما صالح عليه محمدﷺ"قالوا: لونعلم أنك رسول الله ما قاتلناك، فقال رسول اللهﷺ: امح يا على، اللهم إنك تعلم أنى رسول الله، امح يا على، واكتب: هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله. فرجع منهم كثير لكن بقى أربعة آلاف اضطر الإمام: على. لقتالهم في معركة النهروان بعد قتلهم لعبد الله بن خباب بن الأرت.

أما المعتزلة فقد غاصوا في علوم الكلام واستهوتهم الفلسفة فأدخلوها في الدين، فلم ينسبوا إلى الله سوى صفة العلم والخلق، فقالوا بخلق القرآن، وأول من قال بخلق القرآن هو"الجعد بن درهم. وانقسم المعتزلة إلى: واصلية وهذيلية ونظامية وحائطية وبشرية ومعمرية ومزدارية وثمامية وهشامية وجاحظية وخياطية وجبائية.

وكذلك وجد بالكوفة الجهمية وهم أتباع: جهم بن صفوان وقد حاوره أبوحنيفة وظفر عليه. وكان المعتزلة يرون أن فاعل الكبيرة فاسق بينما بقى الخوارج على اعتقادهم بأن صاحب الكبيرة كافر، ولذلك أطلق المعتزلة على

أبى حنيفة وأصحابه مرجئة حيث يرون أن صاحب الكبيرة ليس مخلداً في النار، بل يعذب بمقدار وقد يعفو الله عنه.

وكذلك وجد بالكوفة القدرية حيث يعتقدون أن الإنسان يفعل كل تصرفاته دون تدخل من الله ونقيضهم تماماً الجبرية حيث يعتقدون أن الله قدر كل شئ والإنسان مجرد ورقة تحملها الريح ليس لها أى تدخل، وفي هذان الصنفان قال أبوحنيفة ليوسف بن خالد السمتى:ـ

"لا جبر ولا تفويض ولا تسلط، والله تعالى لا يكلف العباد بما لا يطيقونه، ولا أراد منهم ما لا يعلمون، ولا عاقبهم بما لم يعلموا، ولا سألهم عما لم يعلموا".

وكذلك كثر الشيعة بالعراق وازدادوا تقولاً على آل البيت، ونسبوا إليهم ما لا يليق بهم، فقد جاء في المناقب للمكى:

إن أبا حنيفة قال: قدمت المدينة، فأتيت أبا جعفر محمد بن على، فقال:ـ يا أخا العراق، لا تجلس إلينا، فجلست، فقلت: أصلحك الله، ما تقول في أبى بكر وعمر، فقال: رحم الله أبا بكر وعمر، قلت: إنهم يقولون بالعراق: إنك تبرأ منهما.

فقال: معاذ الله، كذبوا ورب الكعبة، أولست تعلم أن علياً زوج ابنته أم كلثوم بنت فاطمة من عمر بن الخطاب، وهل تدرى من هى لا أبا لك جدتها خديجة سيدة نساء أهل الجنة، وجدها رسول الله ﷺ خاتم النبيين وسيد المرسلين ورسول رب العالمين، وأمها فاطمة سيدة نساء العالمين، وأخوها الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة، وأبوها على بن أبى طالب. ذوالشرف والمنقبة في الإسلام، فلولم يكم لها أهلاً لا أبا لك، لم يزوجها إياه. قلت: فلوكتبت إليهم، فكذبت عن نفسك، قال: لا يطيعون الكتب، هذا أنت، قد

قلت لك عياناً: لا تجلس إلينا، فعصيتنى، فكيف يطيعون الكتاب[1] ولم يكتفوا بتلك الدعايات الظالمة وإنما قالوا: بالإمامة. تأثراً بالعقائد الفارسية فالعرب بطبيعتهم أهل قتال يرفعون رايات العزة في حروبهم، لم يعرفوا حضارة قبل أن يعرفهم الإسلام على الدنيا والآخرة وقد سُمى العرب بهذا الاسم نسبتاً إلى يعرب بن قحطان، وفي قول آخر اسم العرب يعني أهل البادية، فكانوا لا يدينون بالولاء إلا للقيم والمبادئ التى شبوا عليها، فعند العرب يحترم الصغير الكبير لسنه، وعند العرب السيادة للأكثر كرمًا والأشهر بالشجاعة مع علو السن فكانت قوانينهم واضحة أن لكل قبيلة شيخاً يحترمونه لما سبقهم به من الفضل والكرم والشجاعة، لا يقبلون بطاعة الحاكم إذا ما خلى من تلك الصفات، يحبون شخصية القائد دون المغالاة في قدره، أما الفرس فقد نشأوا يميلون إلى إعطاء حكامهم بما ليس فيهم، فكان الفرد منهم يسجد للملك ويعاملون حكامهم كأنهم أشباه آلهة، وعند ظهور الإسلام فيهم كان لا بد لهم ان يبحثوا عن رجل يعطونه تلك الصفة ويورثونها لأبنائه من بعده، فاختاروا الإمام: على وخصوه بذكر الروايات الموضوعة وهو منهم براء.

وانقسم الشيعة إلى أصناف مختلفى الألوان كالإسماعيلية والإثنا عشرية وهما يتفقان في أول ست أئمة واختلفوا في الباقي، ومنهم الروافض حيث سموا بذلك لرفضهم نصيحة: زيد بن على زين العابدين، وكذلك السبئية وهم

---

(١) الموفق المكي في مناقبه.

أتباع: عبد الله بن سبأ، والدروز والأباضية، لكن تبقى الزيدية أقربهم لأهل السنة والجماعة.

فلو تأملت المذاهب السابقة لوجدت أن عقيدة أهل السنة والجماعة وسط بين كل طرفي نقيض، فالقدرية والجبرية، والخوارج، والشيعة، والسبئية، والحرورية فإن البندول لا يصلح أمره إلا بتوسط موقعه وإذا تحرك يمنى أويسرى بلا دراسة وبطريقة عشوائية فإنه يضر صاحبه، وكثير من تلك الشُعب تدخلت القبليات في صناعتها فصراع القبليات أحد نواميس الكون الغلابة، فقد رفع اليهود راية العداء للعرب أبد الدهر لمجرد أنهم أبناء إسماعيل عليه السلام، وقد اجتمع اليهود والروم على العرب لأنهم جميعاً من نسل إسحاق عليه السلام فى حين أن العرب المستعربة من نسل إسماعيل عليه السلام، وحرف الفرس تلك العقائد الشيعية الباطلة وقولهم بالإمامة لمجرد أن أبناء الحسين بن على رضي الله عنهما من الفارسية: زنان شاه، وقد رفض الأمويين التنازل عن الخلافة بحجة المطالبة بدم عثمان لمجرد بغضهم لبنى هاشم وهذا ما عبر عنه معاوية يوماً حين قال لابن عباس: "إن في النفس لخزازات منكم يابنى هاشم"، وقد حاولت كل قبيلة أن تنصر من ادعى النبوة بين ساداتها بعد موت النبى لمجرد الغيرة القبلية وأنهم نفسوا على قريش ما جاءها، وقد بلغت العصبية القبلية مداها حين خرج أتباع يزيد بن أبى أنيس الخارجى. يقولون أن الله سيبعث رسولاً من العجم ينزل عليه كتاباً ينسخ الشريعة المحمدية، فكما أن هناك من يحقد على قريش ذاك الفضل، فهناك من قريش نفسها من يحقد على آل بيت النبى تلك المنة. إن رأس كل بلاء هو تغيب العقل، وعين كل ضلالة هى عدم محاولة إدراك الفهم، فهؤلاء

خنس [١]العقول لا يزيدون الإسلام إلا صدع[٢]، فانحسارهم أفضل من انضمامهم، وعدم سماعهم للرأى الآخر يجعل منهم بلا رأى فهم أشبه بالوعاء الفارغ الذى يتلون بما يسال إلى فيه. فقد غصت العراق بالأفكار وحفلت بالعلماء وانشطرت على ثراها الأصناف وتصنفت الطوائف، فقد كانت مأسدة[٣] فصار أبوحنيفة زعيمها الذى انتصر لمذهب أهل السنة والجماعة كما انتصر لها، وقاد علماءها في ساحات المناظرات إلى النصر.

يقول الإمام الليث:

"لقيت مالكاً في المدينة فقلت له: إنى أراك تمسح العرق عن جبينك "

قال: عرقت مع أبى حنيفة إنه لفقيه يا مصرى. ثم لقيت أبا حنيفة فقلت: ما أحسن قبول هذا الرجل منك. فقال أبوحنيفة: ما رأيت أسرع منه بجواب صادق ونقد تام [٤] وكذلك جمع الحرم النبوى أبا حنيفة ومالك يوماً، ومالك قابض على يد أبى حنيفة يمشيان، فلما بلغ المسجد قدم مالك أبا حنيفة قبله .

وعرف الناس عن الإمام: مالك. أنه لا يجامل أحد ولوبنظرة زائدة عن حقه، وبنفس تلك العقلية التى لا تقدم أحداً خطوة بلا حق حقت عليه أن يُجلس

---

(١) خنس: العقل أي ذهب.

(٢) صدع : تشقق.

(٣) مأسدة: المكان الذى يحتوي على كثير من الأسود.

(٤) ابن شماس الخلال في كتابه " عقد الجواهر الثمينة في مذهب عالم المدينة" الجزء الأول ص ١١.

سفيان الثورى دون المجلس الذى جلس فيه أبوحنيفة وكذلك امتنع عن مناظرة أبي يوسف بعد كتابته للموطأ عندما طلب منه: هارون الرشيد ذلك.
فإن سيادة أبي حنيفة للعلماء لم تكن فلتة، ولا انتشار فقهه عجلة لكنه العقل الذى وجدوه يسع أمة فاتسعت له صدور رجالها.
فقد سأل الأعمش أبا حنيفة عن مسائل، فقال له: ما تقول فيها؟ فأجاب أبوحنيفة، فقال له: من أين لك هذا؟ قال: من أحاديثك التى رويتها عنك، وسرد له عدة أحاديث بطرقها. قال الأعمش: حسبك ما حدثت به في مائة يوم تحدثنى به فى ساعة واحدة، ما علمت أنك تعمل بهذه الأحاديث، يا معشر الفقهاء أنتم الأطباء ونحن الصيادلة[١].
فأبوحنيفة هوذاك النطاسي [٢] الذى سرط [٣] الفقه بعقله فكان يدرك مالا يدركه الحفاظ ويعى بفكره النص كما لا يعيه حامله.
فأبوحنيفة لم يكن من كبار حفاظ الأحاديث فجمع بين الفقه والحديث كالإمام: أحمد. لكنه كان العقل الذى تلقى بين خلاياه الأحاديث فتخرج من فمه مشروحة مبينة بجميع وجوهها وموضحة بخفايا نصوصها التي تنص بين جعبتها على قصص فقه عظيم من إمام أعظم.

---

(١) الذهبي في كتابه " مناقب الإمام أبي حنيفة وصاحبيه" ص ٣٤.

(٢) النطاسي : الشخص الحاذق الماهر

(٣) سرط : أي ابتلع

تلاميذه

أبوحنيفة هو العامل الذى غير الأجواء ليصنع الأفلاذ فحلقته قد نفضت عروقها لتخرج من بين جنباتها علماء اهتزت لهم الدنيا وسادوا عصرهم، فهو لجة[١] العلم الذى تنبثق منه أفرع الفقه ولُجاج [٢] الفكر وحجة العلماء، جلس في كنفه الصبيان صبية فبدت لوزتهم تعم العالم الإسلامى لتلوح بفقه جديد يملأ الآفاق، هو كانفة [٣] الفقه الذى خرج من نظامه المركزي فكراً والفيدرالى رأياً لعلماء خضعت لهم الأرض، فكان الخلفاء يتسابقون لكسب رضا تلامذته فيبتكرون المناصب ليست لأحد قبلهم.

اختلف الناس في مفهوم السعادة، فأهل الدين عرفوا السعادة بأنها الحياة في طاعة الله وأن النفس لا تجد راحتها إلا فى طاعة بارئها وأهل العلم عرفوا السعادة بأنها تلك اللحظات التى يعيشها الإنسان بين أحضان العلم وتلك الرُّيَّا[٤] التى تحمل قتار الكتب لكن السعداء حقاً هم تلامذة أبى حنيفة فقد وجدوا فيه الجود الذى كفاهم أمر دنياهم ووجدوا في جوده عطاء بلا حساب

---

(١) لُجة: البحر الذى لايدرك قاعه، في قوله تعالى ﴿ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا ﴾ [النمل: ٤٤] .

(٢) لُجاج: بحر لجاج أى : واسع اللُّج

(٣) كانفة: الساتر يحجز العدو عن القوم.

(٤) الرَّيَّا: الريح الطيبة.

حتى كفاهم حاجاتهم طوال فترة حياته، ووجدوا فيه الحجا [١] الذى كان يسعهم جميعاً، والحلم الذى كان يحتملهم جميعاً، والعلم الذى لا ينضب فينهشون منه ما ينهشون ولا يكون إلا كما يشرب العصفور من البحر، فهنيئاً لكل من تعلم في مدرسة أبى حنيفة، وسعيد كل من كان في جامعته وسعد بسعادة الدارين من اصطفاه الله ليكون في عصره وبين تلامذته فقد كُفوا أمر الدنيا والآخرة.

سعدوا به كما سعد بهم، فعلم بلا كواهل تحمله كما الحجر على سطح الماء، فقد اندثر مذهب الليث بن سعد. بسبب أصحابه وانتشر مذهب الإمام مالك فى شمال أفريقيا بسبب: أسد بن فرات، وازداد انتشار المذهب الشافعي في القرن السادس الهجري بسبب صلاح الدين الأيوبي، ومن بعده الظاهر بيبرس حتى أن الفقه الشافعي يهيمن على عادات المصريين في كثير من التصرفات إلى اليوم، فصلاة الجنازة حتى اليوم هى على مذهب الشافعي وعادة عدم مصافحة المتوضئ لأي أمرأة أجنبية هي مذهب الشافعي وعادة إعادة صلاة الجمعة بعد صلاتها جماعة قد كان يفعلونها الشافعية حتى وقت قريب، وصلاة ركعتين تحية المسجد أثناء الخطبة هى مذهب الشافعي[٢]، فما زال المصريون حتى اليوم يتفاخرون بنزول الإمام الشافعى فى رحابهم، ونشر فقهه

---

(١) الحجا: العقل.

(٢) عند بداية خطبة الجمعة نص المذهب الشافعي على صلاة ركعتين تحية المسجد اذا دخل المصلي المسجد أثناء الخطبة بخلاف الامام مالك و غيره.

بينهم على الرغم من اتخاذ المذهب الحنفي مذهباً رسمياً للدولة أثناء الخلافة العثمانية، تلك المقتطفات تشرح انتشار بعض المذاهب لكن بالمقابل هناك مذاهب اختفى ذكرها لنضيض[١] جهد حاملها مثل: سفيان الثوري وسفيان بن عيينة وجعفر الصادق أما أبوحنيفة فقد نزهه الله عن كل ذلك فاختار له أصحابه كما اختاره لأصحابه، فقد أعطاهم كل شئ ووفوا له بكل ما أعطى، فقد منح لهم الدنيا والآخرة ومنحوا له خير الصحبة وأوفوا بحقها، حملوا مذهبه على الأكتاف وبثوه بحسن عقولهم وصدق رأيهم، لم ينكروا فضله ولم يجحدوا حقه، فكانت قلوبهم تأن له كل لحظة، فما غدروا به كغدر أهل الغدر الذين كثرت خطاهم على ظهر الأرض، فإن صديق قد يفي لك بما يعد ويظهر الولاء والتملق[٢] حتى ينال منك ما يريد ثم يطاردك بالقطيعة دون سابق إنذار، وقد عانى الشافعى من غدر الأصحاب فقال:

إنى صحبت الناس ما لهم عدد

وكنت أحسب أنى قد ملئت يدى

فلما بلوت أخلائى وجدتهم

كالدهر في الغدر لم يبقوا على أحد

شر الناس إن غبت عنهم يشتمنى

وخير الناس إن مرضت لم يعد

---

(١) نضيض: قلة.

(٢) التملق: التودد.

إذا رأوني بخير ساءهم

وإذا راوني بشر سرهم نكدى [١]

فإن مصاحبة من هم ليسوا أهلاً لصحبتك تضرك، ومصاحبة من هو أهل لصحبتك لكنه غادر تقتلك، فليس للغدر ميثاق.

فأبوحنيفة بالنسبة لأصحابه كالقمر الذى انكدرت [٢] من حوله النجوم واللؤلؤ الذى أضيئت من نور علمه اللآلئ فأخرج لنا من بين حبات عقده ذلك النور الذى حشوت به أحشاء أوداده [٣] فخرج لنا زفر بن الهذيل ويعقوب ومحمد بن الحسن وعبد الله بن المبارك ومسعر بن كدام وداوود الطائى. أما باقي أصحابه فهم .. القاسم بن معن، أسد بن عمروالبجلى، الوليد بن أبان، فضيل بن عياض، الحسن بن زياد اللؤلؤي، يوسف بن خالد السمتي، وكيع بن الجراح، مالك بن مغول، حفص بن غياث، عافية الأودي، على بن مسهر، الأخوان مندل، وحبان يحيى بن زكريا، المغيرة بن حمزة، إسماعيل بن حماد، أبوبكر النهشلى، أبوبردة الضبي، محمد بن جابر الحنفي.

فإننا نسمع ضجيج التفاخر ورنين التباهي من حيث لا ينقطع سرمد المدح من إحدى الجامعات لأبد الدهر إذا خرجت مفكراً أوسياسياً أوعالماً، فكيف

---

(١) الإمام الشافعي في ديوانه ص ٤٦، دار ومكتبة الهلال.

(٢) انكدرت: النجوم أى: تناثرت، في قوله تعالى ﴿ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ۝٢ ﴾ [التكوير: ٢].

(٣) أوداده: أصحابه.

بجامعة أبى حنيفة التى انبثق منها العلماء وانثعب منها فقه يجري إلى جميع أقطار العالم الإسلامي ويلون أغلب المسلمين.

إن جامعة خرج من بين جدران فكرها محمد بن الحسن لتستحق أن تخلد الذكر، وجامعة تضلع من علمها أبي يوسف القاضي لتستحق منا التقدير أبد الدهر، وجامعة رأسها بعد رئيسها زفر بن الهذيل. فهى لا تُنسى ولا يُنسى ذكرها.

إذا خرجت جامعة أحد هؤلاء لكفاها، فإن مدن بالكامل اليوم لتفخر بمرور أوسكن أوثناء عالم عليها، فكيف بتلك الجامعة التى تخرج منها كل هؤلاء؟

قيل فى أصحابه: "هؤلاء ستة وثلاثون رجلاً، منهم ثمانية وعشرون يصلحون للقضاء وستة يصلحون للفتوى، واثنان أبويوسف وزفر يصلحان لتأديب القضاة وأرباب الفتوى"

وإذا ما حركنا: محمد بن الحسن. من الترتيب الأوسط إلى الأول باعتبار أن نضجه العقلي ازداد بعد موت أبى حنيفة حيث لم يكن وقتها بلغ إلا ثماني عشرة سنة لقلنا إن جامعة أبى حنيفة خرجت ثلاثة يصلحون لتأديب القضاة أو بمعنى أدق أن لأبى حنيفة ثلاثة تلاميذ يصلح كل منهم لإقامة مذهب وحده، إذا كان هذا هوحال التلامذة الذين علموا الدنيا فكيف حال معلمهم؟ حفل العلم بعقل أبي حنيفة فنطف من فمه إلى صملاخ تلامذته فقد كان

فكره مطمارًا [١] تبنى عليه مسائل الفقه وعقله المطمورة [٢] الأم التى تنبثق منها مطامير علماء تعجب من علمهم العدو قبل الصديق والبعيد أكثر من القريب.

يختلف العظماء باختلاف شخصية وفكر كل واحد على حدى، فمنهم من يؤلف الكتب ليشيع فكره بين الناس، ومنهم من يؤلف الرجال التى يصير صدر كل واحد منهم مجلدات ليس بين جمل النور بها فراغ فيجعلهم الله وسيلة لإضاءة القلوب وتنوير العقول، النوع الثانى أشد قوة وأكثر نفيراً من النوع الأول لكنه الأكثر تعرضاً للبلاء.

مر أحد رؤساء الحلق المجاورة عليه فوجد أصحابه قد ارتفعت أصواتهم فأقام ملياً ثم قال: "هؤلاء أفضل من الشهداء والعباد والمتهجدين، ثم قرب إلى المسجد فقال لهم: يا هؤلاء ارفقوا بالشيخ فإنه مع ما هو فيه قد أقام عشر ليال متواليات شهدت الليلة التى مضت منها"مقاييس البشر عند هؤلاء تتوقف، وسُبل الراحة التى تنطبق على البشر تشذ عنهم، فلا الراحة التى يتيممها[٣] الناس تريحهم ولا الكبد الذى يتخلل أجساد الإنسان يتعبهم، هم الجبال الواثقة والقوى الثابتة والجماد الجلمد والعقول الواعية، فكل شئ سوى إضاعة الوقت عندهم هين، وكل عناء لأجل العلم فهولذة تحيط بالمتعة.

---

(١) مَطْمار: الخيط الذي يمد على البناء فيبنى عليه.

(٢) المطمورة: مكان تحت الأرض يستدم لتخزين الأشياء.

(٣) يتيممها: يقصدها.

سئل أبويوسف يوماً لماذا قضى برأى أبى حنيفة وقد كان يخالفه فيه .. فقال: كنا نخالفه لنستخرج ما عنده.

أمر مخالفة التلميذ لأستاذه حتى يخرج ما عنده معلوم بين طلبة العلم لكن الأمر غير المعلوم هوتحمل العالم لهذه المناقشات وحض تلاميذه عليها، فمن سوى النعمان فى سعة صدره يتسع لمخالفة من هو دونه.

إنه سامى [١] يزأر فتتوعك [٢] من وعوعته ظلمات الجهل وتُسفر [٣] دجمة [٤] الليل حيث تتهاوى من عظمة حجته شرفات الظلم وأرباض البدع، لقد كان سلطانًا بلا سلطة وحاكمًا بلا جنود وقائداً تلتف إليه العقول لتقرر ما يقره وتستنفر ما يستنفره، لقد كان عظيماً تتجمع في جعبته منابع العظمة وتصب في خليقته خلقة العظماء، فمن شريانه انثعبت الدماء التى تغذي عقول كبار عظماء الأمة، هو المنهل الذي انهالت عليه الفضائل ففضله الله واجتباه حتى صار الإمام الأعظم لأعظم أمة. قال عنه حماد:

"لوأمكننى ألا أرفع الطرف عنه لفعلت"

وقال أبوحنيفة لتلاميذه:

"أنتم مسار قلبي وجلاء حزنى"

---

(١) سامي: أسد.

(٢) تتوعك: تمرض . في الحديث الشريف أن رسول الله ﷺ قال: " إنى أوعك كما يوعك رجلان منكم".

(٣) تُسفر: تذهب وتنكشف . يقال أمرأة سافرة:- اى كاشفة لمفاتنها ومتبرجة.

(٤) دجمة: الليل أى : ظلمته.

مات ابن لأبي يوسف فلم يحضر جهازه ولا دفنه وتركه على جيرانه وأقربائه مخافة أن يفوته من أبى حنيفة شئ.

فإذا كان مجلس أبى جنيفة عند أبي يوسف أهم من دفن ابنه فكيف بأبي حنيفة نفسه؟ وإذا كان الشغف في طلب العلم عند أبي يوسف قد بلغ هذا المدى. فلما لا يقول عنه أبوحنيفة: "لا يطمع فى رئاسة مدينة فيها أبويوسف"

فقد روى عن أبي يوسف أنه عند موته سأل أحد تلاميذه عن مسألة في الحج فسأله التلميذ الرفق بنفسه بعدما رسمت على وجهه ألوان الدهشة .. فقال أبويوسف: لأن أخلى الدنيا عالماً بها خير من أن أخليها جاهلاً بها.

يقول أبويوسف القاضي:-

"العلم شئ لا يعطيك بعضه حتى تعطيه كلك "

أصاب أبويوسف فالعلم مدينة لا تستقر فى صدر المرء حتى يستقر صدر المرء لها، فأبواب العلم لا توصد فى وجه طالبه لكنها ترتج أحياناً في وجه متزعزع العزم وضعيف الإرادة، فأبوحنيفة لم يصبح أبا حنيفة بسهو نظر أونظرة بصر وإنما أعطى حياته للعلم فوهب العلم له الحياة، فكان وقته كله للعلم وماله لطلبة العلم حتى صار طلبة العلم في حلقته علماء تفاخر بهم الدنيا، وعلى هذه الخطا تبعه تلامذته كحذو القذة بالقذة [1].

---

(١) حذو القذة بالقذة :القذة هي ريشة الطائر كالنسر بعد تسويتها لتركب في السهم ، حذو القذة بالقذة: مثال عربي يطلق على الأشياء المتشابهة.

قيل لأبي يوسف أثناء فترة توليه قاضي القضاة: هل وددت إلى اكثر مما أنت فيه؟ فقال: وددت فقه أبى حنيفة وزهد مسعر.

فقال هارون: ما تمناه اكثر من الخلافة.

سأله جلساؤه وهم يعلمون أنه ما من شئ أكثر من قاضي القضاة إلا الخلافة كأنهم يسألونه: هل وددت تولي الخلافة؟

فأجابهم إجابة العالم الذى يعي ما يقول ويحسب كلماته كما تحسب وتقاس حبات الذهب، فما كان يسع خليفة كهارون الرشيد بعلمه وفضله إلا أن يقول تلك القولة..

جاء في تاريخ بغداد أن رجلاً سأل المزني عن أهل العراق، قال: ما تقول في أبي حنيفة؟ قال: سيدهم، قال: فأبويوسف؟ قال: اتبعهم للحديث قال: فمحمد بن الحسن؟ قال: أكثرهم تفريعاً، قال: فزفر؟ قال: أحدهم قياساً.

وسأل الرشيد عن أبي حنيفة تلميذه أبا يوسف فقال عنه:

قال تعالى ﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ ﴾ [ق: ١٨] كان علمي به أنه شديد الذب عن المحارم شديد الورع أن ينطق في دين الله تعال بلا علم، يجب أن يطاع الله تعالى، ولا ينافس أهل الدنيا فيما بين أيديهم، طويل الصمت دائم الفكر مع علم واسع، لم يكن مهذاراً ولا ثرثاراً.. إن سئل عن مسألة كان له علم بها أجاب، وإلا قاس مستغنيا عن الناس، لا يميل إلى طمع ولا يذكر الناس إلا بخير".

قال الرشيد:هذه أخلاق الصالحين، وأمر الكاتب فكتبها ثم أعطاها لابنه وقال: احفظها[1].

تسابق العلماء والخلفاء في مدحه فما تركوا لنا شيئاً، وقالوا عنه الكثير حتى لم نجد القليل، فهو الذى نفذت الأقلام في وصف فضله، هو الجبال الذى خرج منها الذهب فقد جلس أصحابه بين يديه يُرْمَى بالتفسير في مسامعهم ويعقبون كأس الحكمة بعد الصبوح.

دعا المنصور أبا حنيفة يوماً، فقال الربيع حاجب المنصور- وكان يعادي أبا حنيفة-:

يا أمير المؤمنين، هذا أبوحنيفة يخالف جدك كان عبد الله بن عباس يقول: إذا حلف على اليمين، ثم استثنى بعد ذلك بيوم أويومين جاز الاستثناء.

وقال أبوحنيفة: لا يجوز الاستثناء إلا متصلاً باليمين.

فقال أبوحنيفة: يا أمير المؤمنين إن الربيع يزعم انه ليس لك في رقاب جندك بيعة، قال: وكيف؟ قال: يحلفون لك، ثم يرجعون إلى منازلهم فيستثنون فتبطل أيمانهم.

فضحك المنصور وقال: يا ربيع لا تعرض لأبى حنيفة.

فلما خرج قال الربيع: أردت ان تشيط بدمى.

---

(١) ابن حجر الهيثمي فى كتابه " الخيرات الحسان في مناقب الإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان" ص ٦٢.

قال: لا ولكنك أردت أن تشيط بدمى فخلصتك وخلصت نفسى[١].

فعل الفضل بن الربيع ذلك بدافع السخيمة[٢] والتقرب إلى السلطان لكن للدهر أهوال تزيد الحر عزة وتذل الذليل، الأحمق فقط من يأمن مكر الدنيا والتى ما سميت بالخيتعور[٣] إلا من فعل خَتَّعّ[٤].

الجالس بجوارك اليوم قد يجلس مع أعدائك غداً والسائر خلفك غداً قد يسير أمامك بعد غد، فإن الدنيا متقلبة لا تستقر على حال، الحمقى فقط من يأمنوا جانبها ويطمئنوا لضرباتها ولا يخافوا غدرها، فهاهو تلميذ أبى حنيفة أبويوسف القاضي تعرض عليه شهادة الفضل فلا يقبلها، فلما عاتبه الخليفة قائلاً: لما رددت شهادته؟ قال أبويوسف: سمعته يقول أنا عبدك، فإن كان صادقاً فلا شهادة لعبد وإن كان كاذباً لكذلك.

يقول الشافعى: من أراد الدنيا فعليه بالعلم، ومن أراد الآخرة فعليه بالعلم.

العلم يرفع الإنسان في الآخرة، ويزيده عزة في الدنيا، فقد كان عطاء بن أبى رباح. أشج أعور أفطس، أسود غربيب، قطع ذراعه أثناء حربه مع ابن الزبير

---

(١) الذهبي في كتابه " مناقب الإمام الأعظم ابي حنيفة وصاحبيه " ص ٤٧.

وكذلك السيوطي في كتابه " تبييض الصحيفة في مناقب الإمام أبي حنيفة " ص ٤٠ ، دار الوعي بحلب.

(٢) السخيمة: الحق.

(٣) الخيتعور: اسم من أسماء الدنيا.

(٤) ختع : هرب ، سميت الدنيا بالخيتعور لانها تهرب فلاتدوم لأحد.

ضد الأمويين لكن بالعلم صار عطاء أحد سادة علماء هذه الأمة، لا يذكر العلم إلا ذكر عطاء معه.

وعندما وفد الرشيد على جماعة فيهم: محمد بن الحسن. فقاموا له جميعاً إلا هو، فلما ارتفع الأذان، جاء الرشيد فسأل ابن الحسن: لماذا انفردت بالجلوس؟ فقال محمد: كرهت أن أخرج عن الطبقة التى جعلتني فيها. إنك أهلتني للعلم فكرهت أن أخرج منه إلى طبقة الخدمة التى هي خارجة منها، وإن ابن عمك ﷺ قال: "من أحب أن يتمثل له الرجال قياماً فليتبوأ مقعده من النار"وإنه أراد بذلك العلماء.

قال الرشيد: صدقت يا محمد .

فكما أن ليس كل العلماء: محمد بن الحسن. يجب القول إنه ليس كل الخلفاء هارون الرشيد الذى نوه إليه بعض المؤرخون بالبزخ والإسراف وتلك تهمة صادقة لكن أغفلوا بعض الجوانب الهامة الأخرى، هارون الرشيد هو ناصر العلماء وحامي دولة الإسلام ثلاثة وعشرون عاماً، لم يذكر أنه قتل رجلاً ظلماً أو اعتدى على شخص لحفظ الكبرياء وحوادثه مع: بهلول كثيرة وواضحة تبرز عدله.

وكذلك عندما احتج العز بن عبد السلام. على تولية المماليك مقاليد الدولة حيث لا تصح سيادة المملوك للأحرار استجاب الصالح نجم الدين أيوب لفتواه لكن تلك ليس قاعدة، فلا كل ملك يستجيب لفتوى عالم ولا كل عالم يجبر الملك على الانصياع لدين الله، فصراع السلطة مع العلم يحتاج إلى مجلدات سنكتفي بجزء ضئيل منها في باب أبي حنيفة والسلطة.

روى رجل أنه قال:

"كنت عند أبى جعفر وأبوحنيفة في مجلسه وعنده أصحابه فجاء غلام أو شاب فألقى عليه مسألة فأجاب فيها فقال له: أخطأت يا أبا حنيفة، فسكت ثم ألقى عليه أيضاً فأجاب فقال: أخطأت يا أبا حنيفة، فقلت لمن حوله من أصحابه .. سبحان الله لا تعظمون هذا الشيخ ولا تبجلونه ! يجئ شاب أوغلام فيخطئه وأنتم سكوت ! فالتفت إلى أبى حنيفة وقال: "دعهم فإني قد عودتهم هذا من نفسى ".

كان أبوحنيفة باحثاً عن الحرية ناشراً لها بين تلاميذه، أبوحنيفة مفكر يحب الفكر، والفكر لا ينمو إلا في بيئة الحرية، أجاد تلامذته الحرية فاستفحلت فيهم قوى الفكر، يقول أبوحنيفة:-

"لا يحل لمن يفتي من كتبى أن يفتى حتى يعلم من أين قلت"

يعلم تلاميذه الحرية ولا يستبد عليهم برأيه ويطرح عليهم المسألة تلوالأخرى فيناقشونه ويجادلونه ويشرح لهم لما قال فيها كذلك ولما لم يقل غير ذلك ويفهمون منه ثم يستقرون إلى رأى واحد.

يقول أبوحنيفة في أحكام الحروب:

"إذا كان العبد يقاتل مع مولاه جاز أمانه، وإلا فأمانه باطل".

فرد الأوزاعي بقوله:

"أمانه جائز، أجازه عمر بن الخطاب ﷺ ولم ينظر أكان يقاتل أم لا".

فرد أبويوسف مدافعاً عن رأى شيخه فقال: القول ما قال أبوحنيفة، ليس لعبد أمان ولا شهادة في قليل ولا كثير، ألا ترى أنه لا يملك نفسه ولا يملك أن يشتري شيئاً، ولا يملك أن يتزوج، فكيف يكون له أمان يجوز على جميع

المسلمين وفعله لا يجوز على نفسه؟ أرأيت لوكان عبداً كافراً، ومولاه مسلم هل يجوز أمانه؟! أرأيت إن كان عبداً لأهل الحرب، فخرج إلى دار الإسلام بأمان وأسلم، ثم أمن أهل الحرب جميعاً هل يجوز ذلك؟ أرأيت إن كان عبداً مسلماً ومولاه ذمى، فأمن أهل الحرب هل يجوز أمانه؟

وقد أسردت تلك الرواية لأبرز فهم دقيق يظهر بين السطور، فإن دفاع أبي يوسف عن أبى حنيفة لا يُخرج كلمات منظمة كهذه إلى الملأ قبل أن تكون قد نوقشت في الغرف المغلقة، مؤكد أنهم كانوا يجلسون ويأتي كل منهم بأدلته ويتناقشون نقاشات حادة كهذه حتى يطرح كل منهم أسئلة على الآخر فيلقي المستمع إجابته على أذن صاحبه، فلا نجد مسألة إلا لها جواب ولا إجابة إلا لها شرح، سبيلهم الوحيد إلى الإجماع هوالإقناع، فإن لم يستطع أحدهم أن يقنع صاحبه خرج كل منهم برأيه منفرداً، فكثيراً ما كان أبويوسف يخالف شيخه.

قال أبوحنيفة عن وقت وجوب زكاة الزرع والثمر بأنها تجب بخروج الزرع وظهور الثمن.

وقال أبويوسف: يجب الزكاة يوم إدراكه والحصول عليه.

وقال أبوحنيفة بحرمة دفع المرأة زكاتها إلى زوجها الفقير لكن أبا يوسف أجاز ذلك: فلا السكير يدري بعار الخمر ولا الصاحي يدرى بسلطانها"مثل يابانى لكن بالحوار يمكن للسكير أن يعلم عارها، وبالنقاش يعلم الصاحي بسلطانها فتتوافق الآراء لتزجر عنها النفوس.

كان الحوار وسيلتهم الوحيدة لإدراك الحق ومعرفة الصواب، فقد روى أن أبا حنيفة انتهى مع تلاميذه إلى رأى في مسألة ذات يوم وكان تلميذه عافية الأودي

غائب، فقال: لا ترفعوها حتى يحضر عافية لنسمع رأيه فيها. فإن أبا حنيفة احترم غياب تلميذه وحجب القرار النهائي الذى أصدرته جامعته عن النور حتى تكتمل جميع أفراد الجامعة فكان تلامذته يحترمون درسه فلا يغيب عنه أحد ولوبلغت التباريح [١] جُفرتها[٢].

يقول الحسن البصري:

"إذا لم يعدل المعلم بين الصبيان كتب من الظلمة".

كانت المناقشات تسيطر على مجلسه فلا يُسمع إلا الصياح، إذا تكلم أبوحنيفة هدأت الأصوات، سمعهم مسعر بن كدام فى صخبهم ثم بصر بهم سكوتاً كأن على رؤوسهم الطير حينما يتكلم الأستاذ فقال: "إن رجلاً تسكن عنده الأصوات لعظيم الشأن في الإسلام"إذا نبههم الناس أن ارتفاع الأصوات بالكلام لا ينبغي في المسجد قال: "دعهم فإنهم لا يفقهون إلا بهذا".

افتتح أبويوسف وزفر عنده مسألة من حين طلعت الشمس إلى أن نودي بالظهر، فكان إذا قضى لأحدهما على الآخر قال له الآخر: أخطأت ما حجتك؟ فيخبره حتى كان آخر ذلك أن قضى لأبي يوسف على زفر عندما نودي بالظهر، فضرب أبوحنيفة على فخذ زفر وقال: لا يطمعن بالرياسة فى بلد يكون هذا بها. فأبوحنيفة ذاك الرجل الذى حنف إليه أنجب طلبة العلم وحُنفت خلفه أقدام العلماء ليصيبوا من علمه قبس ويقتبسوا من فضله

---

(١) التباريح: المشاكل والعقبات.

(٢) جفرتها: أى شدتها.

مقتبسات. قال رجل: أخطأ أبوحنيفة. فقال آخر: كيف يخطئ ومعه أبويوسف وزفر؟ ثم عدد بقية من التلاميذ، وقال: من كان هؤلاء جلساؤه لم يكد يخطئ لأنه إن أخطأ ردوه.

هو جانحة [1] العلم الذى أدرك الحوزة [2] ليجيز خاصته على الخلود وتخلد جماعتهم فى صفحات المجد، فأين الذين زعموا أنهم الراسخون في العلم دونه؟

كان سفيان الثوري يفتى بجواز الوضوء بماء قد توضأ به الغير، فلما سمع أن أبا حنيفة لا يجيز ذلك قال: لم؟ قالوا له: يقول إنه ماء مستعمل، فجاءه بعد ذلك بأيام رجل فسأله عن الوضوء بماء استعمله غيره فقال سفيان: لا يتوضأ به لأنه ماء مستعمل. فرجع فيه إلى قول أبى حنيفة وأول من استخدم الحنفية هم تلاميذ أبى حنيفة لضمان تجدد الماء فالحنفية التى تفتحها مع بداية كل صباح أو التى تستقبلها في أول لحظات يومك لتنظف لك بدنك ما هى إلا اكتشاف من اكتشافات جامعة أبى حنيفة وإبداع من إبداعات طلبته، ومياهها التى تتجدد مع كل إعادة فتح ما هى إلا تجدد لذكر رجل عظيم نعيش بفقهه ويعيش فقهه فينا، فمن سوى فقه النعمان جعل لنا مخرجاً وما سوى

---

(١) الجانحة: الحارس.

(٢) الحوزة: الملك. والمقصود هنا: ملك العلم.

رأيه جعل لديننا فرجاً، كان جميلاً يحض[١] جلساءه على الجمال، عباهر[٢] اعتجر بالرأى مستنداً على الحجا[٣]، سنم علمه برأيه حتى أن أحداً كان لا يملك إلا أن ينظر إليه من أسفل فلا تصل إليه عين ولا تدركه قدحة.

"رأى على أحد جلساءه سنجاباً فلما هم بالخروج قال له: ناولنى هذاالسنجاب فتناوله وقال: ما أطرفه. وطلب من صاحبه بيعه فسر صاحب السنجاب أن الإمام الأعظم أعجب بالسنجاب، فسأله أبوحنيفة عن الثمن فأجاب: سبحان الله أبيعه لك ! هولك هبة منى تذكرة. قال أبوحنيفة: إن بعته منى بقيمته وإلا فلا حاجة لى في الهبة، فإن بعته منى بقيمته كان أعجب إلي و أفعل ذلك لأنى محتاج إليه. فقومه بعض الحضور واشتراه أبوحنيفة".

رجلاً علم الدنيا الإنفاق ضن على جليسه أن ينال منزلة عطاء يُبذَل إليه، ورجل أهدى للجميع علم ومال رفض أن يُهدى إليه سنجاب، هذا الرفض خرج لأن أبا حنيفة هوالطالب، إن نفس كنفسه لا تقبل بأن تقبل هدية أعطيت من يد بناء على أمر الأُذُن.

أبويوسف القاضي

ولد عام ١١٣هـ، وكان عمره سبعة وثلاثون عامًا عندما توفى أباحنيفة وتولى رئاسة حلقة أبي حنيفة عام ١٥٨هـ عن عمر خمسة وأربعون عامًا وتوفي

---

(١) يحض: يحرض.

(٢) عباهر: الطويل من كل شئ.

(٣) الحجا: العقل.

أبايوسف عام ١٨٣هـ. كان أبويوسف القاضي في بداية أمره يختلف إلى ابن ابى ليلى، فبينما صحب ابن أبي ليلى أثناء ملاك رجل، فلما نثر السكر أخذ أبويوسف بعضه، فكره ذلك ابن أبى ليلى، وأغلظ له في القول قائلاً: أما علمت أن هذا لا يحل، فجاء أبويوسف إلى أبى حنيفة فسأله عن ذلك، فقال أبوحنيفة: لا بأس بذلك، بلغنا أن رسول الله ﷺ كان مع أصحابه في ملاك رجل من الأنصار، فنثر التمر، فجعل رسول الله يرفع ويقول لأصحابه "انتهبوا" وبلغنا أن رسول الله ﷺ في حجة الوداع لما نحر مائة بدنة أمر بأن يؤخذ له من كل بدنة قطعة، ثم قال: "من شاء أن يقتطع فليقتطع"فهذا ونحوه من الهبة مستحسن شرعاً، تلك المسألة كانت سبب في توضيح المسافات البعيدة بين الفكرين وانتقل من ابن أبي ليلى إلى أبي حنيفة بعد تسع سنين من التبعية له. وقيل إن سبب انتقاله إلى أبي حنيفة إن مناظرة جمعته مع :زفر. فعلم منها فرق فقه أبي حنيفة من فقه ابن أبي ليلى

يقول أبو يوسف عن نفسه:

"كنت اطلب الحديث والفقه وأنا رث الحال، فجاءنى أبى يوماً وأنا عند أبى حنيفة فانصرفت معه فقال لى: يا بنى لا تمدد رجلك مع أبي حنيفة فإن أبا حنيفة خبزه مستو وأنت تحتاج إلى المعاش، فقصرت عنه كثيراً في الطلب وآثرت طاعة أبي، فتفقدني أبوحنيفة وسأل عنى فجعلت أتعاهد مجلسه، فلما كان أول يوم أتيته بعد تأخري قال: ما شغلك عنا؟ قلت: الشغل بالمعاش وطاعة والدى، فجلست. ولما انصرف الناس دفع إلى صرة وقال: استمتع بها فإذا فيها مائة درهم وقال لى: إلزم الحلقة فإذا فرغت هذه فأعلمني، فلزمت الحلقة فلما مضت مدة يسيرة دفع إلى مائة أخرى، ثم كان يتعهدني وما

أعلمته بخلة قط، ولا أخبرته بنفاد شيء، وكأنه كان يخبر حتى أستغنيت وتمولت.

رحم الله أبا يوسف فسلط عليه أبا حنيفة ليكفيه الدنيا والآخرة فيترهل[1] جسده من العلوم قاطبة ويتكون صملاخه[2] من رنين لذة الفقه و رونق الحجة الداحضة لآراء أصحاب القلوب الذفيفة، أراد الله لأبى يوسف الخير فجعل أبا حنيفة له ظلًا في الدنيا، وكتب له الفلاح فجعله دائم الحضور بين يدي أبي حنيفة وقدر له المجد فجعله أنجب تلاميذه، فالمجد حليف لأبي حنيفة في وثيقة وقعها التاريخ وشهدت عليها الدنيا منذ عام ٨٠ هـ.

فجلوس أبي يوسف بين يدي أبى حنيفة كان أشبه بجلوس الشافعي بين يدى الإمام مالك، فكلاهما عانا من الفقر وأعانهم الفقر على أنفسهم.

فقد ورد عن الشافعى أنه ذات يوم وقد كان غلاماً صغيراً في سن السابعة أوأكثر من ذلك بقليل جلس في مجلس الإمام: مالك رضى الله عنه بالمدينة المنورة، وكان الإمام: مالك. يقرأ فى درسه الأحاديث النبوية في مسجده، وكانت عادته أنه إذا ذكر حديثاً يقول عن فلان عن فلان عن صاحب هذا المقام، ويشير إلى قبر الرسولﷺ، فرأى وهويشير إلى قبره الشافعي يعبث بثمرة من الحصير بعد أن يبلها بريقه فوق يده، فحزن الإمام: مالك. ثم انتظر حتى أنهى درسه الذى قرأ فيه أربعين حديثاً ثم ناداه فأقبل وجلس بين يديه فعاتبه

---

(١) يترهل: ينبت.

(٢) صملاخه: أذنه.

قائلاً له: لماذا كنت تعبث أثناء تلاوة حديث محمدﷺ؟ فقال: يا سيدي، ما كنت أعبث وإنما كنت اسجل بريقى ما تقول حتى لا أنسى لأنى فقير ولا أملك الدراهم الذى أشترى به القرطاس والقلم، فتعجب الإمام: مالك. ثم قال له: إذا كنت صادقاً فاقرأ ولو حديثاً من الأحاديث النبوية الأربعين التى قرأتها في درس الليلة، فجلس الشافعي كما يجلس الإمام وقال: عن فلان عن فلان عن صاحب هذا المقام وأشار إليه كما أشار الإمام ثم قرأ الأربعين حديثاً.

فالفقر ما انجلى عن أحد من كبار أهل العلم سوى الليث بين سعد وأبي حنيفة فالإثنان تبوعوا[1] الكرم وتحفظوا خلفه وكانت يمنى كل منهم تسابق يسراه في طول التشمير ومد الذراع لكن للتاريخ في صون المحبة آراء مختلفة ومقاييس متفاوتة.

فأبوحنيفة قام تلاميذه بفقهه ومذهبه حتى ارتجت الأرض من فقه أبى حنيفة والليث. قال عنه الإمام الشافعى:

"أفقه من مالك لولا أن أصحابه لم يقوموا به".

فكلاهما ملكا العلم، وكلاهما أسرفا في الكرم لكن شاء الله لمذهب هذا بالانتشار والآخر بالاندثار لحكمة لا يعلمها إلا من اطلع على القلوب وكشفت له أستار الغيب ولا تدركه الشواهد ولا تشهده المشاهد لكنه شاهد على خلقه عالم بما خلق.

---

(١) تبوع: انبسط باعه كثيراً، وتبوع للكرم: أى زاد فيه.

أبويوسف والشافعى صحبا الفقر لكن أبا يوسف وجد يد أبي حنيفة تعينه وتشد عضده بعكس الشافعي الذى لازمه الفقر ملازمة الماء للمنخفض يقول أبويوسف عن شيخه:

"وكان يعولني وعيالي عشرين سنة وإذا قلت له ما رأيت أجود منك، يقول: كيف لو رأيت حماد، وما رأيت أجمع للخصال المحمودة منه".

وقال أبويوسف أيضاً:

"تغمد الله أبا حنيفة برحمته. وجازاه خيراً. فإنه أطعمني الدنيا والآخرة إطعاماً".

ورغم كل تلك المحاباة التى ظل بها أبوحنيفة تلميذه فقد أعادت صفحة التاريخ سطورها فكما عزم أبوحنيفة التخلى عن حماد فمنعه الحياء والوفاء كذلك عزم أبويوسف التخلي عن أبى حنيفة فمنعه العجز وأحاطته قلة الحيلة.

روى أن أبا يوسف تلميذه وصاحبه قد أحس من نفسه بأنه قد آن له أن يعقد مجلساً يستقل فيه الدرس، فقال أبوحنيفة لبعض من عنده أذهب إلى مجلس يعقوب وقل له: ما تقول في قصار دفع إليه رجل ثوباً ليقصره بدرهمين، ثم طلب ثوبه، فأنكره القصار، ثم عاد، وطلبه فدفعه له مقصوراً، فله أجرة، فإن قال: نعم، فقل له: أخطأت، وإن قال لا، فقل له: أخطأت، فصار الرجل إليه، فسأله فقال: نعم له أجرة، فقال: أخطأت، فنظر ساعة، ثم قال: لا فقال أخطأت، فقام من ساعته لأبى حنيفة فقال له: ما جاء بك إلا مسألة القصار، قال أبويوسف: أجل علمني قال: إن كان قصره بعدما غصبه فلا أجرة له، لأنه قصره لنفسه وإن كان قصره قبل غصبه، فله أجرة، لأنه

قصره لصاحبه، ثم قال أبوحنيفة كلمته المشهورة :"من ظن أنه يستغني عن العلم فليبك على نفسه"إن رجلاً واحدًا علمته فأدبته فتمكنت، وحشوته بالحكمة فغص بها جوفه فهو لك مجد الدنيا وعز الآخرة، فقد فاز أبوحنيفة بتلميذه النجيب أبي يوسف فنشر مذهبه وعلم الناس علومه، فقد كان أبويوسف خير خليفة لأعظم الأئمة، فبعقل أبي يوسف عرفنا قدرات أبى حنيفة وبفقه أبي يوسف عرفنا فقه أبى حنيفة، فهو ذاك الشبل الذى خرج من عقل الإمام الأعظم. فأبويوسف هو أول من تولى منصب قاضي القضاة في الإسلام حتى أصبح أعلى منصب بعد الخلافة بالدولة العباسية، سأله الناس يوماً عما يود فقال: "وددت أن لى مجلساً من أبى حنيفة بنصف ما أملك".

قيل له: ولم تتمنى هذا ! قال: "في النفس حزازات كنت أسأله عنها.

كتبه

كتاب الصلاة، كتاب الزكاة، كتاب الصيام، كتاب الفرائض، كتاب البيوع، كتاب الحدود، كتاب الوكالة، كتاب الوصايا، كتاب الصيد والذبائح، كتاب الغصب والاستبراء، كتاب اختلاف الأمصار، كتاب الرد على مالك بن أنس، رسالة في الخراج إلى الرشيد، كتاب الجوامع.

محمد بن الحسن الشيباني:

ولد عام ١٣٢ هـ، عمره بلغ ثمان عشرة عاماً عندما توفى أبوحنيفة فاستكمل تلقى العلم بين يدي أبى يوسف، توفى عام ١٨٩ هـ في نفس اليوم الذى توفي فيه الكسائى فقال الرشيد عنهما: "اليوم دفنت الفقه واللغة".

تلقى العلم من الإمام مالك والأوزاعي والثورى بجوار الفقه الحنفي فانتهت إليه رئاسة الفقه بالعراق بعد أبى يوسف.

فهو أشبه بالفرس الذى أدرك المضمار أخيراً فسبق الناس جميعاً.

قال الشافعي عنه:

"كان أفصح الناس، كان إذا تكلم خيل إلى سامعه أن القرآن نزل بلغته".

وقال فيه أيضاً: "كان محمد بن الحسن يملأ العين والقلب".

زفر بن الهذيل:

ولد عام ١١٠ هـ، تولى رئاسة الحلقة بعد شيخه عن عمر أربعين عاماً، توفى عام ١٥٨ هـ.

كان لأب عربى وأم فارسية، قيل إنه ورث جمال أمه وفصاحة أبيه، ثم زاده الدهر كمالاً فاورثه علم أبى حنيفة حتى صار أحد أصحابه قياساً ليس له كتب، ولم تعرف له رواية لشيخه، فنحن لا نعرف عنه مسائل ولم نورث منه علم، إنما توارثت كتب التاريخ ذكره ولم يخلوذكرها من ذكر اسمه لمجرد أنه التلميذ النجيب لأبي حنيفة.

داوود الطائى:

أحد أنجب أصحابه لكنه أغرق كتبه وصام عن الدنيا أربعين عاماً، قيل إنه ورث أربعمائة درهم من أمه فأنفق بها على نفسه ثلاثين عاماً.

عبد الله بن المبارك:

ولد عام ١١٨ هـ، توفى عام ١٨١ هـ

والده: المبارك. كان عبداً لخوارزمي من التجار من همذان بنى حنظلة وكان يعمل يوماً فى بستان مولاه، وأقام فيه زماناً ثم إن مولاه صاحب البستان جاءه يوماً، وقال له: أريد رماناً حلواً، فمضى إلى بعض الشجر وأحضر رماناً فكسره

فوجده حامضاً فحرد عليه، وقال: أطلب الحلو فتحضر لى الحامض ! هات حلواً.

فمضى وأحضر من شجرة أخرى، فلما كسرها وجدها أيضاً حامضاً، فاشتد حرده عليه وفعل ذلك مرة ثالثة وذاقه فوجده أيضاً حامضاً، فقال له بعد ذلك: أنت ما تعرف الحلو من الحامض ؟! فقال: لا، فقال: وكيف ذلك؟ فقال: لأنى ما أكلت منه شيئاً حتى أعرفه، فقال: ولمَ لم تاكل؟ فقال: لأنك ما أذنت لى بالأكل منه، فعجب من ذلك صاحب البستان وكشف عن ذلك فوجده حقاً، فعظم في عينه وزاد قدره عنده، وكانت له بنت خطبت كثيراً، فقال له: يا مبارك، من ترى نزوج هذه البنت؟

فقال: أهل الجاهلية كانوا يتزوجون للحسب، واليهود للمال، والنصارى للجمال، وهذه الأمة للدين، فأعجبه عقله وذهب فأخبر به أمها وقال لها: ما أرى لهذه البنت زوجاً غير مبارك فتزوجها وأنجب الإمام: عبد الله بن المبارك. الرجل الذى حجت عنه الملائكة.

كان عبد الله يحج عامًا ويغزو عاماً، وبينما فى العام الذى أراد فيه الحج خرج ليودع أصحابه وجد امرأة في الظلام تفتش في كومة قمامة حتى وجدت دجاجة ميتة فأخذتها لكى تطعمها صغارها، فتعجب: عبد الله من فعلها فسألها حتى علم بعد إلحاح في سؤالها بأنها أرملة فقيرة تعول أربع بنات ولا يوجد من يكفلها فخرجت تلتمس عشاء لبنات ألهب الجوع أكبادهن فوجدت تلك الميتة، فبكى: عبد الله. بعدما علم قصتها وأعطاها المال كله الذى كان ينوي به الحج وعاد إلى بيته ولازمه طوال فترة الحج، وخرج الحجاج من بلده فأدوا فريضة الحج، ثم عادوا، وذهبوا إلى بيته ليشكروه على إعانته لهم طوال

فترة الحج فتعجب: عبد الله من فعلهم لكنه لم يخبر أحد بالسر وأنه لم يذهب إلى الحج هذا العام، فنام ليلته ليرى رسول الله ﷺ يقول له: "يا عبد الله بن المبارك، لقد أكرمك الله كما أكرمت اليتامي، وسترك كما سترت اليتامى، إن الله سبحانه وتعالى خلق ملكاً على صورتك، كان يتنقل مع أهل بلدتك في مناسك الحج، وإن الله تعالى كتب لكل حاج ثواب حجه وكتب لك أنت ثواب سبعين حجة، وعند وفاته فتح عينيه، وضحك ثم قال: ﴿ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ [الصافات: ٦١].

الفضيل بن عياض:-

ولد عام ١٠٧ هـ

يقول الفضيل عن أبى حنيفة:

"كان أبوحنيفة رجلاً فقيهاً، معروفاً بالفقه، واسع المال، معروفاً بالأفضال على كل من يطيف به، صبوراً على تعلم العلم بالليل والنهار، حسن السمت، كثير الصمت، قليل الكلام حتى ترد مسألة في حلال أوحرام، فكات يحسن أن يدل على الحق، هياباً من السلطان".

قال الفضيل يوماً إن عبادة قيام الليل أفضل من الجهاد، فسمع: عبد الله بن المبارك بذلك فأرسل إليه:

يـا عابـد الحـرمين لوأبصرتنـا ... لعلمـت أنـك في العبـادة تلعـب

من كان يخضب خده بدموعه ... فنحـــورنا بـــدمائنا تتخضـــب

او كـان يتعـب خيلـه في باطـل ... فخيولنـا يـوم العريكـة تتعـــب

ريح العبير لكم ونحن عبيرنا وهج السنابك والغبار الأطيب

ولقد أتانا من مقال نبينا قول صحيح صادق لا يكذب

لا يستوي غبار خيل في أنف أمرئ ودخان نار تلهب

هذا كتاب الله ينطق بيننا ليس الشهيد بميت لا يكذب

فما وصل كلام: عبد الله إلى الفضيل وقرأه أغرورقت عيناه، وقال: صدق أبوعبد الرحمن. لما حضرت:الفضيل. الوفاة غشي عليه، ثم فتح عينيه وقال: وابعد سفراه! واقلة زاداه!

يوسف بن خالد السمتى:

كان يتردد فى بداية أمره إلى: عثمان البتى. ثم قدم من البصرة إلى الكوفة يسأل عن بعض مسائل أشكلت على علماء البصرة وأختلفوا فيها مع علماء الكوفة فدلوه على أبى حنيفة، فلما رأى عقله وعلمه وأدرك فضله صار من أصحابه.

من اقوال أبى حنيفة له:

ومتى جمع بينك وبين غيرك مجلس، أوضمك وإياهم مسجد، وجرت المسائل أوخاضوا فيها بخلاف ما عندك لم تبد لهم منك خلافاً، فإن سئلت عنها أخبرت بما يعرفه القوم ثم تقول:

"فيها قول آخر هو كذا وكذا والحجة له كذا، فإن سمعوه منك عرفوا مقدار ذلك ومقدارك، فإن قالوا هذا قول من؟ قل بعض الفقهاء، فإذا استمروا على ذلك وألفوه، عرفوا مقدارك وعظموا محلك. وإياك والحقد وإن غدروا بك، وأد الأمانة وإن خانوك ".

كرمه

الكرم ليس له مقاييس لكن العرب وضعوا له مقاييس فذكروا لنا حاتم الطائي ونقلوا إلينا قصص وعجائب شخص تلك الشخصية العربية الفريدة التكوين، وكان: تبان أسعد. يقاتل أهل المدينة ويقاتلونه نهارا ثم يرسلون إليه بالطعام ليلا في واحدة من أغرب غرائب التاريخ، وكان: عبدالله بن جعفر. ترسل إليه العطايا فيوزعها على جلسائه قبل أن ينفض المجلس، وكان: الحسن بن علي. يعطي عطاياه لأهله قبل أن يقوم من مجلسه أيضاً، أما: الحسين بن علي. كان أمره غريبًا كشخصه الفريد ذاك الذي طاش باللب وأخفى الهام حتى بلغ به كرمه إلى الاستدانة لكي ينفق على أبناء من استشهد مع أبيه بمعركة صفين. فالكرم أحد الخصال التي توقف عندها العقل، فقد تجد شخصًا ذميم الخلق عظيم الكرم فيوغش [1] كرمه على عيوبه كعبدالله بن الجدعان، يقول الشافعي:

إن كثرت عيوبك في البرايا وسرك أن يكون لها غطاء
تستر بالسخاء فكل عيب يداويه كماقيل السخاء

وقد تجد شخصًا عظيم الخلق بخيل اليد فيذكر الناس بخله ويتغافلون عن حسناته. فالكرم أحد الفروع التي تنبع من خلق الايثار، وخلق الايثار من الصفات التي تملك القدرة على انتزاع الاحترام من الآخرين .

---

(١) يوغش : يستر أو يغطي.

أما تعريف الكرم قيل إنه: تقبل النفس للعطاء دون مقابل، والسخاء هوفرح النفس بالعطاء، والجود هومبادرة النفس للعطاء مع أول خاطر.

أما عطاء دون مقابل مع استمرار في العطاء على مدار العمر وكنف الناس بسخائك بكل ماتملك من مال، والأخذ بيد الناس كبارًا أوصغارًا لتنقلهم من الضيق الى السعة في الدنيا والآخرة فلا أعتقد أن علماء اللغة قد توصلوا الى تعريف لها بعد. كان النعمان دنق [١] على نفسه دمق [٢] لما يملك مع مايشح [٣] عند غيره كدمس [٤] لا تعود مكوناته الى أصلها، عظيم تنتهي إليه منابع العظمة، كريم تنبع منه مناهل الكرم، عرفته الدنيا وعرفها فأعطته دون أن يعطيها.

يقول عنه أبويوسف :"كان يعولني وعيالي عشرين سنة"وقال عنه أيضاً: "كان رحمه الله يغتم لمن يشكره على شيء أعطاه إياه"

إنك نادر ما تجد رجل يجود بلا حساب، وإذا وجدته فقد لا تجد رجلًا يغتم إذا شكرته، وإذا وجدت رجلًا جوادًا يوجن [٥] كرمه فيما بينه وبين ربه فلن

---

(١) دنق : أي ضيق على نفسه في المعيشة.

(٢) دمق : الشيء بالشيء أي دمجه مع بعضه و خلطه.

(٣) يشح : ينقص أو يقل.

(٤) الدمس : المكونات الطينية كالتراب و الماء و أشياء أخرى بحيث اذا خلطت يصعب فصلها.

(٥) يوجن : الشيء أي : يخفيه و يستره.

تجد رجلًا يفعل ذلك سرمدياً [١]، وإذا وجدته فلن تجد من يستمر على فعله أمد العمر، لكن تلامذة النعمان وجدوا كل هذا بنضيض الجهد لأنهم وجدوا أبا حنيفة.

لكن ما يغفله الكثير من الناس هو ووزجته فمن تلك المرأة التى ترى زوجها يبسط كرمه بالوفر كاملًا على كل من تربت عليه عيناه وتعينه على ذلك فإذا كانت علاقة الرجل بالمرأة علاقة معاشرة وأنس، فعلاقة المرأة بالرجل علاقة منفعة في المقام الأول، فالرجل حين يخطب أمرأة يبحث فيها عن ما يكمله فإن كان عابداً فيبحث عن أمرأة صوامة نهاراً قوامة ليلاً، فيجد فيها تلك المتعة حين يصوما معاً ليجتمعا على إفطار واحد، ويناما ليوقظ أحدهما الآخر لأداء صلاة قيام الليل، وإن كان عالماً فيبحث عن أمرأة طالبة للعلم فيجد عندها تلك المتعة التى يجدها طلبة العلم حين يسأل كل طالب علم الآخر عن مسألة لايدريها، وإن كان فاجراً يبحث عن من تعينه على فجوره، فالزناة ينكح كل منهم الآخر لتجد هى المتعة في خيانة زوجها بقدر ما يجدها هوفي خيانته لها.

لكن علاقة المرأة بالرجل هى علاقة منفعة بالكامل، فالمرأة حين يتقدم لخطبتها الخطاب تبحث عن إمكانياته المالية ثم مكانته الاجتماعية ثم طباعه الشخصية.

---

(١) سرمديا : أي متصل دون انقطاع .

فإمكانياته المالية لأنه بالنسبة لها المصرف الذى تتجه إليه لتشترى ما تستطيبه نفسها، ومكانته الاجتماعية لأن المرأة دائماً ما تستمد قوة شخصيتها من قوة شخصية زوجها، وطباعه الشخصية لأنها هى الشريك الأول والأخير له فهى أول من تتلاقى حدته وآخر من تهدأ إليها سريرته، وقد تجد المرأة تظهر لزوجها من الحب أنهارًا ومن العشق بحارًا لكن يزول كل هذا مع أول نازلة، وقد تجد المرأة تظهر لخطيبها من الحب ما تظهر حتى إذا فسخ خطبته لها وخطبت لآخر بعد أيام تجد نفس المقدار من الحب الذى كانت تظهره للأول قد أنصب إلى أذن الثانى وكأن للقلوب أبواباً ومفاتيح.

يقول الإمام: على ﷺ..

دع ذكـرهن فمالهن وفـاء ... عهدهن وريح الصبا سواء

يكسرن قلبك ثم لا يجبرنه ... وقلوبهن من الـوفاء خـلاء

فقليل من النساء من تجدهن يخالفن هذه القاعدة، ومن هؤلاء القليل جاءت مقولة (وراء كل رجل عظيم امرأة) .

فشر البيوت تلك التى تبدأ بكلمات الحب ثم تنتهي في ساحات محاكم الأسرة.

أما النعمان فقد اختار له الله زوجته كما اختار له أصحابه، أبوحنيفة الذى لم يسئ اختيار قط، ولم يعجز عن رأى أبداً، ولم يخطئ فى تصويب، ولم يصوب إلى خطأ أجتبى عقله تلك الزوجة التى ترى ثراء زوجها الفاحش مع عراء بيته وترى الأموال التى تغدق عليه من التجارة ثم ينفقها على طلبة العلم والفقراء.

فقد أصابت رجلاً من الأغنياء فادحة أثقلته فجعل يتجلد حتى عضه الجوع ومسه الضر وشكت له أمرأته جوعها وجوع صغيرتها، فخرج الرجل على عزم

السؤال قاصداً مجلس أبى حنيفة حيث جلس ملياً تقيمه الحاجة ويقعده الحياء. ثم انفض المجلس عن أهله وتفرقوا وخرج الرجل دون أن يبدي من أمره ما أخفى، وعاد إلى داره، ولما جن الليل جعل أبوحنيفة في كمه خمسة آلاف درهم ودق الباب وقال: "أيها الرجل وضعت عند بابك شيئاً هو لك "ورجع مسرعاً لئلا يرى ذل الأخذ في وجهه، وأخذ الرجل الصرة وهو يأبى أن يحل عقدتها خشية أن تكون صدقة ذمى، حيث كان الذميون في تلك الأيام يتألفون قلوب الناس بالأعطيات، ولكن زوجته أهابت به: "حل عقدتها لعل الله يحل عقدتنا"فلما حلها قرأ كلمة أبى حنيفة:

"هذا المقدار جاء به أبوحنيفة لك من وجه حلال فليفرغ بالك"

فأبوحنيفة في كرمه كالهوجاء [1] في انتشارها حيث لا تدع أحد إلا نالته بشئ منها، وكالرياح في إصابته حتى أن رؤيته بشرى بالخير، ومجالسته هوالخير كله والإنصات إليه هوالمجد بكل ما يحويه من خير بين أكنافه.

الصغير لا يعلم بوجود الجنة أوالنار حتى ينضج عقله بعض الشيء ثم يبدأ بإدراكهم دون أن يراهم، فإذا نضج عقله أكثر يعلم أن المسلمين لن يخلدوا فيها لكن يعذب كُلٌ حسب ذنبه وتلك هى الحد الأدنى من العقل فما دون ذلك حماقة، فإذا نضج عقله أكثر علم أن المسلمين فرق مختلفة فمنهم المعتزلة الذين يظنون أن من مات على كبيرة دون أن يتوب فهومخلد بالنار، ومنهم من يكفر الناس بالكبائر كالخوارج.

---

(١) الهوجاء: الرياح العظيمة.

فالعقول درجات لا يلتقي بها تفاوت ولا يجتمع فيها حكمة وجهل، فالحكمة بالإدراك تتشكل وبالمعرفة وتُوجَد، فهى أعلى درجات العقل وما بين القمة والقاع تلك المرتفعات التى تعلوها صراعات الأفكار.

فمن لا يستطيع الركض لا يؤمن بوجود الطيران، فلولا إختراع توماس أديسون للمصباح لما صدقنا وجود الكهرباء، لكنه قدر العظماء وحدهم أن يعانوا لأجل طموحاتهم ويتحملوا طلاوة [١] التباريح[٢] لأجل طمح العين.

فقد سخر الناس من: عباس بن فرناس. حينما ضحى بحياته لأجل أن يبرهن على إمكانية الطيران، وكانوا يطلقون على: نيوتن. بالأحمق. قبل أن يفاجئ العالم بنظرياته، فإن عامة الناس قدرهم الجهل والجهل ردائهم، أما خاصة الناس أبتلوا بالجهال؛ والجهالة مياه تطارد وقود فكرهم وتطفئ شرارة حماستهم لتُغرق فيهم الأمل، فقد عانى الشافعي منهم فقال: "ابتلى العلماء بالجهال"لكن هيهات ما بين تلك العقول التى تصنع الفكر الذى ينهض بالأمة وتحيك الأفكار التى تنقذ البشرية بتلك العقول الخاوية التى لا تنطق إلا بما يوضع فيها، فلا تملك القدرة على التفريق بين الأمور وتفتقد إلى معرفة إدراك الصواب فلوكانت قدرات العظماء كقدرات سائر الناس لما ميزوا عليهم، ولولم تكن عظمتهم لا تقارن بغيرهم لما فضلوا عليهم.

---

(١) طلاوة : كل ما يُطلى به.

(٢) التباريح: المشاكل أو الشدائد.

فعندما تقدم حماد بن أبي حنيفة يوماً ليصلي بالناس أخذ أبوه بمجامع ثوبه فأخره فقال حماد يا أبت أتفضحنى.

قال أبوحنيفة: بل أردت أن تفضح نفسك فمنعتك إذ لوصليت فقال قائل أعيدوا صلاتكم خلف هذا فسُطرَ في الكتب ويبقى عاره ليوم القيامة[١].

فتأخير الأب لابنه عن الإمامة في الوقت الذى قدمه الناس لا ينم عن الحكمة بشئ لكن عين الحكمة تلك الحجة التى ذكرها النعمان فدعته لتأخير ابنه فصدق رأى أبى حنيفة: وهوالذى ما أخطأ قط، فأصاب من حيث قيل له: مرحى[٢]، وهوالمنزه عن سماع: برحى[٣].

فنحن الآن بعد النعمان بعشرات القرون نذكر أنه أخر ابنه عن الصلاة بالمسلمين ولوأن أحداً فعل ما خشى النعمان فعله لكانت قول من لا قول له وكلام من لا كلام له، ولتناثرت الجمل من معاشر أخفاء الهام[٤] عن الحدث وتغاضى الناس ما قيل عن حماد وتمسكوا بالخوض فيه بالسوء، ولكنها بصيرة الإمام الأعظم الذى لو لم يكن كلامه صحيحًا لما وصلت إلينا تلك الرواية فإن ذكر تلك الرواية لنا يتم على إمكانية ذكر نقيضها لوتغيرت.

---

(١) ابن حجر الهيثمي في كتابه الخيرات الحسان في مناقب الإمام الأعظم أبى حنيفة النعمان صـ٦٦.

(٢) مرحى: لفظ كان يستخدمه العرب للشخص الذى يصيب هدفه.

(٣) برحى: لفظ كان يستخدمه العرب للشخص الذى يخطئ هدفه.

(٤) معاشر أخفاء الهام: أي الحمقى الذين لا عقل لهم.

كان النعمان يتأنى قبل الحكم ويحكم قبل المضى فلا يثب جدلاً إلا نحو الحق، أفكاره منظمة كجمال عقله و رجاحة فعله.

حلفت أمه يميناً فاستفتت أبا حنيفة فأفتاها، فلم ترض عما أفتى وأبت إلا أن يفتيها زرعة، هناك قال لها زرعة: أأفتيك ومعك فقيه الكوفة، فأسر أبوحنيفة لزرعة أفتها بكذا، فأفتاها، فعادت أمه راضية وعاد راضياً لرضاها[1].

جاء رجل إليه بالليل يقول له: أدركني قبل الفجر وإلا طلقت امرأتى، قال: وماذاك؟ قال: تركت الليلة كلامى فقلت لها: إن طلع الفجر ولم تكلميني فأنت طالق ثلاثاً، وقد توسلت إليها بكل أمر أن تكلمني فلم تفعل، فقال النعمان: اذهب فمر مؤذن المسجد أن ينزل فيؤذن قبل الفجر فلعلها إذا سمعته أن تكلمك واذهب إليها وناشدها أن تكلمك قبل أن يؤذن المؤذن، ففعل الرجل وجلس يناشدها وأذن المؤذن فقالت: قد طلع الفجر وقد تخلصت منك !

قال: قد كلمتنى قبل الفجر وتخلصت من اليمين.

استنجد الرجل بحكمته فما ضلت المقاييس، فلوأنه نصح الرجل بقوله: "إذهب فمر مؤذن المسجد أن ينزل فيؤذن قبل الفجر"لكانت عبقرية ليس بعدها عبقرية لكنه زاد على ذلك قوله: "وأذهب إليها وناشدها أن تكلمك قبل أن يؤذن المؤذن" فكانت عبقرية فوق العبقرية، فلو أن المؤذن أذن قبل الفجر دون أن يناشدها زوجها أن تكلمه فربما أنتهت أن وقت أذان الفجر لم يحن بعد لكنه عندما يناشدها قبل الآذان فإنه يصرف انتباهها إلى كلامه فلا

---

(١) ابن حجر في كتابه " الخيرات الحسان في مناقب الإمام الأعظم أبى حنيفة النعمان " ، صـ٦١.

يكون لديها متسع لكى تركز في وقت الأذان فيزداد احتمال وقوعها في تلك الحيلة فلأجل مثل تلك النصائح قال له المنصور: أنت صاحب حيل[١].

وقال عنه عبد الله بن المبارك: إنه مخ العلم"[٢].

فعند النعمان إذا دلق[٣] ما في الحجا[٤] ضلت السفسطة[٥] صراطها وإذا دلص[٦] رأيه نكص المُفنّد[٧] فكل عالم فى حضرته حدرج[٨] وكل حكيم في وجوده جب [٩]. شكا إليه شخص فى بئر حفرها جاره في داره، وأنه يخشى منها على جداره، فقال النعمان: احفر في دارك بجوار تلك البئر بالوعة، ففعل فنزت البئر وكبسها مالكها.

---

(١) ابن رشد الجد القرطبي في كتابه " البيان والتحصيل " كتاب الجامع التاسع صـ ٥٢٦.

(٢) ابن حجر في كتابه " الخيرات الحسان في مناقب الإمام الأعظم أبى حنيفة النعمان " ، صـ ٣٣.

(٣) دلق: الشئ أى أخرجه، يقال دلق السيف أى اخرجه من غمده.

(٤) الحجا: العقل.

(٥) السفسطة: المغالطة في الجدال والإتيان بحجج باطلة.

(٦) دلص: برق ولمع.

(٧) المفند: الشيخ الذى يكثر كلامه بالحجج الباطلة.

(٨) حدرج: صغير.

(٩) جُب: أى منقطع الحكمة.

أبوحنيفة والسلطة

السلطة: هى إمتلاك القدرة على الحكم والتأثير على الآخرين وبمفهوم الدولة هى: السيطرة على مقاليد الحكم، والحاكم هوالشخص الذى آل إليه حكم الشعب، ومعاداة الحاكم لا تخرج من نطاق هؤلاء الأربعة الطائفة الأكثر تضرراً، والطائفة الأكثر ثقافة، اختلاف العقائد، اختلاف العشائر.

أما أركان الحكم فهى:

الجلاوزة [1] والقضاة والجيش والشعب.

إذا فسد الشعب فسدت الأركان الثلاثة الأخرى، وإذا صلح الشعب لا يضره فساد الثلاثة أركان الأخرى لأن صلاحهم أمر مؤكد يتوقف على بعض الوقت فقط. أما مصادر السلطة التى تتحكم بالشعب هى: سلطة المال وسلطة العلم وسلطة الحكم.

سلطة الحكم: هوالحاكم الذى يسيطر على الأركان الأربعة السابقة.

سلطة العلم: هى صوت العلماء أصحاب الرأى الصائب الذى تتحرك لكلمتهم الشعوب وتنخلع لصمتهم القلوب، فربما عالم كان أقوى من الحاكم لما يملكه من قوة تأثير على الناس كأحمد بن حنبل [2].

---

(١) الجلاوزة: بالمفهوم الحالى هى الشرطة.

(٢) أحمد بن حنبل : هو واحد من الذين اجتباهم الله للدفاع عن هذا الدين وتصدى وحده لأربع خلفاء في فتنة خلق القرآن وهم : المأمون والمعتصم والواثق بالله والمتوكل.

سلطة المال: هى الجندي المجهول في كل دولة أونظام، فللمال في النفس قوة لا تنكسر إلا بالانفاق ولا تنهزم إلا بالزهد وقليل من الشعوب بلغ الزهد لذلك تبقى قوة المال هى الجندى المجهول الذى بغيابه يُخرَق النظام .

يقول الإمام على: "ينام الرجل على الثكل ولا ينام على الحرب"[١]

فترى الاشتراكية سرعان ما تفشل إذا ما نشبت فلا يرضى الأغنياء باقتطاع فلذة من كنوزهم ولا يقبلون بالتنازل عن شئ من ملكهم.

إذا قرر حاكم توزيع الأموال بعدالة تجمعوا عليه ليخلعوه فلا يجد بد من مجاراتهم حتى يستقطب رضاهم.

يقول أبوذر رضى الله عنه قال رسول الله ﷺ: "ليس المؤمن الذى يشبع وجاره جائع"[٢].

وقال عمر بن الخطاب قبل موته:

"لواستقبلت من امرى ما استدبرت لأخذت فضول أموال الأغنياء فقسمتها على الفقراء"[٣].

لكنك تجد المجتمعات المترديه خالية من الطبقة الوسطى فينحصر المجتمع بين طبقة الأغنياء وطبقة الفقراء ليس لشئ إلا لجشع رجال المال، والمحزن في

---

(١) الشيخ محمد عبده في نهج البلاغة صـ ٣٧٤ ، مكتبة مصر. و المقصود بالحرب هنا : الفقر.

(٢) البخارى في كتابه " الأدب المفرد " صـ ٣٧ حديث رقم ١١٢، دار الحديث القاهرة.

(٣) الطبري في كتابه ، " تاريخ الأمم والملوك " ٢/٥٧٩ فصل فضول أموال الأغنياء .

الأمر أن الحاكم أحياناً يحميهم إذا ما تخطوا القانون حتى يحموه إذا ما اهتز عرشه، فقوة المال إذا اجتمعت أقوى من قوة السلطان بمراحل، فإذا كان السلطان يحكم بقوة جنوده فإن المال يحكم بقوة ذاته فإذا لم يشترِ المال الجنود فإنه لم يعجز عن شراء أسلحتهم وإذا عجز عن شراء الكثير منها فأنه لم يعجز عن شراء القليل الذى يفوق الكثير قوة، فخلاصة القول أن قوة المال إذا اجتمعت أقوى من الحاكم لكن تبقى قوة العلم أقوى من الاثنين معاً في دولة الشعوب الواعية المثقفة وأضعفهم فى دولة الشعوب المتخلفة التى لا تعي فتتبع كل ناهق وتجتمع خلف كل زبرة داعٍ لذلك تجد أن المال والسلطة دائماً يجتمعون على العلم ليقتلوه ويهاجمونه بكل قوة فيشيعون الجهل في صفوف العامة ويحبون أن تعم فيهم عدم المعرفة، لذلك كانت الكنيسة تحارب العلماء في القرون الوسطى حتى تبقى مصدر الحكم الوحيد.

فدول العدل والمساواة هى التى تذيع العلم وتأذن له بالتسحسح[1] فتكون مصلحة الحاكم أن ينشأ شعب واعٍ حيث لا يحمي العدالة إلا الوعي، وبحماية العدالة يحتمي الحاكم العادل.

قال: عمر بن عبد العزيز لجلسائه يوماً: أخبروني من أحمق الناس؟

قالوا: رجل باع آخرته بدنياه.

فقال لهم عمر: ألا أنبئكم بأحمق منه؟

قالوا: بلى

---

(١) التسحسح: المقصود بها هنا الانتشار .

قال: رجل باع آخرته بدنيا غيره[١]

فهذا الخليفة العادل يعلن ذلك بين الناس، ولولم يكن عادلاً باحثاً عن الحق راجياً الآخرة محاولاً دفع الناس إلى التمسك بالولاة العادلين لما نطق بها لسانه. فالحاكم الظالم يحتاج إلى تلك النوعية من البشر، فهؤلاء الذين يبيعون آخرتهم لأجل دنيا الملك، فالملك يقتل بأيديهم، ويذبح بسيوفهم، وينكل لأعدائه بعقولهم. فقد قتل عبيد الله بن زياد سيد شباب أهل الجنة: الحسين بن على رضى الله عنه للحفاظ على ملك يزيد، فباع آخرته بدنيا: يزيد بن معاوية، واستحل: مسرف بن عقبة والحصين بن نمير. مدينة رسول الله ﷺ بقتل أهلها لأجل دنيا: يزيد بن معاوية. فتلك النوعية من الناس الذين يبيعون آخرتهم بدنيا غيرهم يحتاج إليهم حاكم ظالم: كيزيد بن معاوية. الذى وصفه: الحسن البصري بقوله: سكير، بينما يحذر منهم حاكم عادل: كعمر بن عبد العزيز.

أما النعمان فقد اجتمع له الثلاثة معاً، فكان رجل المال الذي يجود حتى التجرد ويتجرد حتى الحفف[٢]. ورجل العلم الذى يخشاه الحكام حيث يفتي بقوة علمه وينطق بقوة حجته، وإذا ما أضفت إلى ذلك أنه عرض عليه منصب حاجب الدولة الأموية قبل أن يرفضه تجد أن الثلاثة قد اجتمعت عنده. فعندما كان ابن هبيرة والياً بالكوفة في زمان بنى أمية، فظهرت الفتن فى

---

(١) أبو نعيم الأصبهاني في كتابه " حلية الأولياء" حديث رقم ٧٥٠٠.

(٢) الحفف: قلة ذات اليد.

العراق فجمع فقهاء العراق ببابه، فيهم ابن أبى ليلى وابن شبرمة وداوود بن هند فولى كل واحد منهم صدراً من عمله، وأرسل إلى أبى حنيفة، فأراد أن يجعل الخاتم في يده، ولا ينفذ كتاب إلا تحت يد أبي حنيفة، فامتنع أبوحنيفة، فحلف ابن هبيرة إن لم يقبل أن يضربه، فقال له هؤلاء الفقهاء: إنا ننشدك الله أن تهلك نفسك، فإنا إخوانك، وكلنا كاره لهذا الأمر ولم نجد بداً من ذلك، فقال أبوحنيفة: لوأرادني أن أعد له أبواب مسجد واسط لم أدخل فى ذلك فكيف وهو يريد منى أن يكتب دم رجل يضرب عنقه، وأختم أنا على ذلك، فوالله لا أدخل في ذلك أبداً [1] فقال ابن أبى ليلى: دعوا صاحبكم، فهوالمصيب وغيره المخطئ، فحبسه صاحب الشرطة، وضربه أياماً متتالية، فجاء الضارب إلى ابن هبيرة وقال له: إن الرجل ميت،فقال له ابن هبيرة: قل له: تخرجنا من يميننا، فسأله، فقال النعمان لوسألني أن أعد له أبواب المسجد ما فعلت. ثم اجتمع الضارب مع ابن هبيرة، فقال ابن هبيرة: ألا ناصح لهذا المجوسى أن يستأجلنى فأؤجله؟ فأخبر أبوحنيفة بذلك، فقال النعمان: دعوني أستشر إخواني وأنظر في ذلك، فأمر ابن هبيرة بتخلية سبيله، فركب دوابه وهرب إلى مكة، وكان هذا فى سنة مائة وثلاثين، فأقام بمكة حتى صارت الخلافة للعباسيين، فقدم أبوحنيفة الكوفة في زمن أبى جعفر المنصور وبناء على ذلك يمكن القول أن النعمان لم يكن له بيعة عند الأمويين بعكس باقي

(١) ابن حجر في كتابه " الخيرات الحسان في مناقب الإمام الأعظم أبى حنيفة النعمان " ، صـ٦٦.

العلماء في عصره، وعندما خرج زيد بن على زين العابدين على هشام بن عبد الملك سنة ١٢١ هـ قال أبوحنيفة رضي الله عنه:

"ضاهى خروجه رسول الله ﷺ يوم بدر"، وسُئِل: لم تخلفت عنه؟ قال: حبسنى عنه ودائع الناس، عرضتها على ابن ابى ليلى. فلم يقبل فخفت أن أموت مجهلاً"وقال أيضاً: "لوعلمت أن الناس لا يخذلونه كما خذلوا أباه لجاهدت معه لأنه إمام حق ولكن أعينه بمالي"وبعث إليه عشرة آلاف درهم، وقال للرسول: أبسط عذرى له.

عاش النعمان اثنين وخمسين عاماً فى عصر الدولة الأموية ثم ثمان عشرة سنة فى عصر الدولة العباسية[١] بما يعني أنه عاصر ظلم بنى أمية وفساد حكامهم ثم الدولة العباسية خلال فترة عملها السري حتى الإنتقال إلى مرحلة بسط النفوذ ورأى قتل أبي جعفر لمحمد النفس الذكية. بداية الأمر دعم كل خروج من آل البيت على الدولة الأموية واعتبرهم أئمة حق، ثم دعم الدولة العباسية فى حروبهم ضد الأمويين، فلما استقر الأمر لبنى عباس وبدر منهم قتل وتشنيع ضد العلويين بدأ النعمان إعلان مسيرة العداء ضد العباسيين ولم يترك مناسبة إلا جهر بموقفه بينما اكتفى الإمام مالك بتجويز الخروج: مع محمد النفس الذكية وأفتى للناس بمبايعته، فقيل له: فإن في أعناقنا

---

(١) ولد النعمان سنة ٨٠ هـ بيننا انتهت الدولة الأموية عام ١٣٢ هـ مما يعني انه عاصرها اثنين وخمسين سنة ثم كانت بداية الدولة العباسية عام ١٣٢ هـ حتى وفاة النعمان سنة ١٥٠ هـ بما يعني أنه عاصرها مدة ثمانى عشر سنة.

بيعة للمنصور، فقال: إنما كنتم مكرهين، وليس لمكره بيعة، فبايعه الناس عند ذلك على قول الإمام: مالك الذى لزم بيته، وبناء على ذلك ازداد عدد المبايعين لمحمد بن عبد الله بالمدينة والعراق، واشتد النعمان في هجومه على العباسيين حتى بلغ الأمر إلى تثبيط: الحسن بن قحطبة. أحد قواد المنصور على الخروج لحرب: محمد النفس الذكية، حيث أن: الحسن بن قحطبة. دخل على أبى حنيفة وقال له: عملى لا يخفي عليك، فهل لى من توبة، قال النعمان: إذا علم الله تعالى أنك نادم على ما فعلت، ولوخيرت بين قتل مسلم وقتلك لاخترت قتلك على قتله، وتجعل مع الله عهداً على ألا تعود، فإن وفيت فهى توبتك.

قال الحسن: إنى فعلت ذلك وعاهدت الله تعالى ألا أعود إلى قتل مسلم، فكان ذلك إلى أن ظهر إبراهيم بن عبد الله العلوي، فأمره المنصور أن يذهب إليه فجاء إلى الإمام، فقص عليه القصة، فقال النعمان: جاء أوان توبتك، إن وفيت بما عاهدت فأنت تائب، وإلا أخذت بالأول والآخر، فجد في توبته وتأهب وسلم نفسه إلى القتل ودخل على المنصور، وقال: لا أسير إلى هذا الوجه إن كان لله تعالى طاعة في سلطانك فيما فعلت، فلى منه أوفر الحظ، وإن كان معصية فحسبي، فغضب المنصور وقال حميد بن قحطبة (أخوه): إنا ننكر عقله منذ سنة، وكأنه خلط عليه، وأنا أسير، وأنا أحق بالفضل منه، فسار.

تحرى المنصور عن سبب تغيير موقف قائده. فسأل: من يدخل عليه من الفقهاء؟، فقالوا: إنه يتردد على أبي حنيفة. لكن سرعان ما سيطر دهاء المنصور على الموقف فأخبر مجموعة من ولاته الذين يمكن لـ: محمد النفس الزكية. أن يشك بتغيير موقفهم أن يرسلوا له رسالة يطلبون منه الخروج

وأظهروا مبايعتهم له، فخرج: محمد النفس الزكية. بالمدينة وإبراهيم بن عبد الله بالعراق. فقتلا ليستتب الأمر تماماً للمنصور سنة ١٤٥ هـ وجلد الإمام: مالك لفتواه بأن طلاق المكره لا يقع، فقد كان الحكام يجعلون الرعية يحلفون بالطلاق لضمان عدم رجوعهم عن البيعة.

جُلد النعمان في عهد يزيد بن عبد الملك حتى يقبل بخاتم الدولة الأموية فيكون في يده، وجُلد الإمام: مالك حتى يتراجع عن فتوى عدم وقوع طلاق المكره، ثم تبعهم الإمام: أحمد وما ناله من جلد وتعذيب في فتنة خلق القرآن.

فقوة العلم أقوى من الحاكم في دولة الشعوب الواعية، لذلك اتجه هؤلاء الحكام إلى إجبار كبار العلماء على قبول المناصب فيها.

يقول القعقاع بن حكيم:

كنت عند المهدي وأتى سفيان الثورى كبير علماء المسلمين في عصره، فلما دخل عليه ولم يسلم بالخلافة والربيع قائم على رأسه متكيء على سيفه يرقب أمره، أقبل عليه المهدي بوجه طلق وقال له: يا سفيان تفر هنا وههنا تظن أن لو أردناك بسوء لم نقدر عليك، فقد قدرنا عليك الآن. أفما تخشى أن نحكم فيك بهوانا؟ قال سفيان: إن تحكم في يحكم فيك ملك قادر يفرق بين الحق والباطل.

قال الربيع له: يا أمير المؤمنين ألهذا الجاهل أن يستقبلك بمثل هذا؟ أتأذن لى أن أضرب عنقه، فقال له المهدي: اسكت ويلك وهل يريد هذا وأمثاله إلا أن نقتلهم فنشقى لسعادتهم، اكتبوا عهده على قضاء الكوفة على ألا يعترض

عليه في حكم، فكتب عهده ودفعه إليه، فأخذه وخرج ورمى به في دجلة وغاب عن أنظار الناس فطلب في كل بلد فلم يوجد بعين كانه شريك النخعي[1].

ففى ظل عصر ساد الإسلام فيه العالم سواء بقوة الجنود اوبالعلم أوبالحضارة التى سبقت أوروبا بمئات السنين، إن أول مستشفى بنيت في الإسلام كانت بعهد: الوليد بن عبد الملك. ثم تبعها بعد سبع قرون أول مستشفى بأوروبا.

ففى ظل عصر تنازل فيه: خالد بن يزيد. عن طمع الخلافة بعد أن زهد فيها معاوية بن يزيد ليتفرغ إلى دراسة الكيمياء.

ففى ظل عصر بلغ فيه الوعي لأعلى مداه حينما تكلم علماء المعتزلة في خلق القرآن فلم يرضخ أحد من الشعب لعدم رضوخ الإمام: أحمد لأن الأمور إذا لم تسند لأهلها فهى ضلالة.

فالتاريخ لا يهلك ولا يستحدث من العدم، ففى ظل تلك الدرجة العالية من الوعي كان لابد أن تتسيد الأمة الإسلامية العالم وتسيطر على أطرافه، وكان لابد للحكام أن يحاولوا الفوز برضا العلماء، فالعلماء أقوى من الحكام في البلاد التى تحوي شعوب واعية كما ذكرنا.

فقد تصدى: أحمد بن حنبل. فى فتنة المعتزلة لثلاث خلفاء متتاليين لا ينقص أحدهم ظلماً عن الآخر ولا يقل سيف أحدهم بطشاً عن زُحمة الآخر ولا سوط أحدهم شدة عن سجن الآخر لينتصر في النهاية نصراً فرق الله به جمع

---

(١) ابن خلكان في كتابه " وفيات الأعيان" الجزء الثانى صـ ٣٩٠.

المعتزلة ليجبر التاريخ ويجبرنا بعده على بسط أكمل معانى الاحترام لسيرة ذلك العالم العظيم حامل المليون حديث.

ففى أمة الإسلام وحدها نستطيع القول بأن عالماً واحداً أستطاع الانتصار على ثلاث خلفاء، ولا غرو في ذلك فقد ترك الناس موكب هارون الرشيد وذهبوا خلف موكب: عبد الله بن المبارك، وكان يحضر مجلس الإمام: أحمد بن حنبل خمسة آلاف شخص ليس منهم إلا خمسمائة يكتبون منه والباقي يتعلمون من أدبه ويتأدبون من آدابه وشيع جنازة الإمام: أحمد. مليون وثلاثمائة ألف وقيل أن جنازة ابن تيمية بلغت أقل من هذا العدد بقليل، فهل بلغت جنازة أحد الحكام هذا الرقم؟ فحتى لوتغافلت النسبة والتناسب بين عدد السكان وقتها وعدد السكان الآن لم يصل أحد لهذا العدد.

فكل ما سبق ينتهى بنا إلى شيء واحد وهوأنه إذا أردت صناعة مجتمع متقدم فعليك تقديم العلماء حتى يصبحوا القدوة والمثل للأطفال فيرتفع معها معدل العلم بين الشعب، فالحاكم الجاهل يحرص على قتل صوت العلم بين شعبه حتى إذا أخطأ يجد من يصفق له وإذا ظهرت رسومات الجهل على وجهه لا تجد من يوضحها، لا يرون لأحد كما يرون لأنفسهم، لذلك تجدهم يخشون العلماء ويعادون أهل الحق منهم، فالباطل لا يحب أن يسمع الناس غيره والجاهل لا يحب أن يبصر الناس جهله.

يقول ميمون بن مهران عن عمر بن عبد العزيز:
"كان العلماء عنده تلاميذه"[١]

فالحاكم حينما يكون على درجة من العلم يستطيع أن يفرق بين الحق والباطل ويعلم الخط الفاصل بين الخطأ والصواب. لكن حينما يكون غير ذلك فإنه يصبح فريسة سهلة لبطانة أهل السوء يتلاعبون به كيفما يريدون ويوجهونه لخدمة مصالحهم حتى لوتعارضت مع مصلحة الأمة. فالجاهل سهل الانقياد حتى لوكان سلطان يسير خلفه ملايين الجنود فمن لا يملك العقل ليفرق بين الأمور لا يستطيع أن يقود الفرق المختلفة.

إن الناصر لدين الله [٢] كان يملك جيشًا ليس له مثيل في عصره حتى قيل إنه بلغ نصف مليون مقاتل لكنه تمادى في الأخطاء و واصل عدم الانصياع لأهل الخبرة واكتفى بسماع آراء بطانة أهل السوء الذين لا يخلو عصر منهم لينتهي به الحال مهزوماً وقد أضاع ملكاً عظيماً لو أحسن تدبيره لدانت له أوروبا بأكملها بذلك الجيش الذى لا يملك مثيله أحد وقتها بعكس عبد الرحمن الغافقى الذى كاد أن ينشر الإسلام بأوروبا كلها لو قدر له الانتصار في معركة بلاط الشهداء رغم أن تعداد جيشه كان ضئيلاً جداً لكنه استطاع بحسن التدبير أن يصل إلى تلك النقطة بعد سلسلة من الانتصارات.

---

(١) السيوطي في كتابه " تاريخ الخلفاء " فصل خلافة عمر بن عبد العزيز.

(٢) الناصر لدين الله الموحدي هو ابن السلطان يعقوب بن بوسف بن عبد المؤمن ابن على . وقد تجمع له نصف مليون مقاتل في معركة العقاب لكن تتالى الأخطاء تسبب في هزيمته.

"فما عمر بن عبد العزيز، ولا قتيبة بن مسلم، ولا أبوحنيفة، ولا الشافعي، ولا ابن سينا، ولا ابن رشد، ولا طارق بن زياد وأترابهم في كل فن من فنون العلم أوالسياسة أوالحرب، إلا رجال تضرم جذوة[1] الإيمان فيهم حرارة الرسالة التى كانت تغمر قلوبهم بالنور".

إنهم رجال وهبوا حياتهم للدين فوهب الدين لهم الحياة، وإنهم رجال لوسبسبت [2] دماءهم على الأرض لنبتت منها شجرة الإسلام، هم الرجال الذين أمتلأوا يقيناً بقضية الإسلام فملأ الإسلام الأرض بذكرهم وأطربها بكلماتهم.

فالنعمان كان على قناعة تامة بعدم صلاح المنصور للحكم واعتبره ليس من أهل العدل، والمواقف التى أخفت هذا المعنى في مضمونها كثير.

فعندما وقع خلاف بين المنصور وزوجته الحرة بسب ميله عنها، وطلبت العدل منه فقال لها: بمن ترضين في الحكومة بينى وبينك؟ قالت: بأبى حنيفة، فرضى هو به أيضا، فأحضره، وقال له: يا أبا حنيفة، الحرة تخاصمنى فأنصفنى منها، قال أبوحنيفة: ليتكلم أمير المؤمنين قال المنصور: يا أبا حنيفة كم يحل للرجل أن يتزوج من الناس، فيجمع بينهن؟

قال: أربع، قال: وكم يحل له من الإماء، قال: ما شاء ليس لهن عدد.

قال المنصور: وهل يجوز لأحد أن يقول خلاف ذلك؟

---

(١) جذوة: القطعة الملتهبة.

(٢) سبسبت: أى سالت.

قال أبوحنيفة: لا

فال المنصور لزوجته: قد سمعت

فقال أبوحنيفة: إنما أحل الله هذا لأهل العدل، فمن لم يعدل، أوخاف ألا يعدل، فينبغي ألا يجاوز واحدة. قال الله تعالى:

﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ فَوَٰحِدَةً ﴾ [النساء: ٣] فينبغي لنا أن نتأدب بأدب الله، ونتعظ بمواعظه فسكت أبوجعفر وطال سكوته، فقام أبوحنيفة وخرج.

فلما بلغ منزله أرسلت إليه خادماً، ومعه مال وثياب وجارية وحمار مصرى فردها، وقال للخادم: أقرئها سلامي، وقل لها: إنما ناضلت عن دينى، وقمت ذلك المقام لله، لم أرد بذلك تقرباً إلى أحد، ولا ألتمست به دنيا[1].

ونفس الموقف حدث مع: سفيان الثورى. فى عهد الخليفة المهدى ..

فقد قال الخليفة: المهدي. لزوجته: الخيزران: أريد أن أتزوج.

فقالت له: لا يحل لك أن تتزوج على، قال: بلى.

قالت: له بينى وبينك من شئت.

قال: أترضين سفيان الثوري؟ قالت: نعم

فوجه إلى سفيان الثورى فقال: إن أم الرشيد تزعم أنه لا يحل لى أن أتزوج عليها وقد قال الله تعالى:

﴿ فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ﴾ [النساء: ٣]

---

(١) ابن حجر في كتابه " الخيرات الحسان في مناقب الإمام الأعظم أبى حنيفة النعمان " ، صـ٦٣.

ثم سكت، فقال له سفيان: أتم الآية قوله تعالى:-

﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ فَوَٰحِدَةً ﴾ [النساء: ٣]

وأنت لا تعدل، فأمر له بعشرة آلاف درهم، فأبى أن يقبلها. تتشابه سيرة العلماء الذين لا يخشون في الله شيئاً، إذا وضعت أبا حنيفة أمام المنصور كما تضع سفيان أمام: المهدي.

فقد انشطر العلماء إلى أصناف، فمنهم من باع آخرته بدنيا الملوك فلا يفتي إلا بما يملي عليه ولا يتكلم إلا بفم السلطان، ومنهم من باع دنيا الملوك وأغرائاتهم بآخرته فهؤلاء هم أهل الثقة حيث ضن[1] علينا الزمان بإفرازاته من مثل تلك النوعية حتى تجدهم أقل من القليل في أزمنة ركب الناس بها طبقاً فوق طبق.

وبعض العلماء يصنعون السلطان كما أن بعض السلاطين يصنعون العلماء.

فالنوع الأول تفوز به المجتمعات المتقدمة دنيا ودين، والنوع الثانى يفوز من المجتمع دون أن يظفر المجتمع منه بشىء، فإن بنى إسرائيل ساروا بالأرض يضربون دروباً من الذل حتى ظهر نبى الله "صامويل. واختار لهم "طالوت ليتولى الحكم وعندما أنتفض أهل الموصل على: المنصور، وقد اشترط المنصور عليهم أنهم إذا انتفضوا تحل دماؤهم له، فجمع المنصور الفقهاء وفيهم أبوحنيفة، فقال المنصور، أليس صح أنه عليه الصلاة والسلام قال:

---

(١) ضن: أي بخل.

(المؤمنون عند شروطهم، وأهل الموصل قد شرطوا ألا يخرجوا على، وقد خرجوا على عاملى، وقد حلت لى دماؤهم).

فقال الرجل: يدك مبسوطة عليهم، وقولك مقبول فيهم، فإن عفوت فأنت أهل العفو، وإن عاقبت فيما يستحقون. فقال المنصور لأبي حنيفة: ما تقول أنت يا شيخ، ألسنا في خلافة نبوة وبيت أمان؟ قال أبوحنيفة: إنهم شرطوا لك ما لا يملكونه وشرطت عليهم ما ليس لك ،لأن دم المسلم لا يحل إلا بأحد معان ثلاث، فإن أخذتهم أخذت بما لا يحل، وشرط الله أحق أن توفى به، فأمرهم المنصور بالقيام فتفرقوا، ثم دعاه وقال: يا شيخ القول ما قلت، انصرف إلى بلادك ولا تفت الناس بما هو شين على إمامك فتبسط أيدي الخوارج.

إن النعمان عبقري من عباقرة التاريخ، رجل مفعم بالذكاء وحسن الفهم وروعة التصرف، تجد فى سيرته نماذج تستنبط منها روعة هذا الرجل، كأنه حاكم بعقله قبل أن يكون إمام بعلمه، وملك بين تلاميذه قبل أن يكون ثائر على ظلم أبى جعفر المنصور، وسلطان تسلط على القلوب قبل أن يكون رائداً بأخلاقه. رفض جميع محاولات المنصور التى إستهدفت جعله أداة من أدوات الدولة العباسية يستخدمها لكسب قلوب الشعب. أراد أن يوليه القضاء فامتنع، فحلف المنصور أن يتولى معه وحلف أبوحنيفة ألا يتولى.

عن الربيع بن يونس يقول:

"رأيت أمير المؤمنين ينازل أبا حنيفة في أمر القضاء، وهويقول: اتق الله، ولا ترع أمانتك إلا من يخاف الله، والله ما أنا بمأمون الرضا، فكيف أكون مأمون الغضب، ولواتجه الحكم عليك ثم هددتنى أن تغرقني في الفرات، أو أن ألى

الحكم لاخترت أن أغرق، لك حاشية يحتاجون إلى من يكرمهم لك، فلا اصلح لذلك، فقال له: كذبت، أنت تصلح، فقال النعمان: قد حكمت على نفسك، كيف يحل لك أن تولى قاضياً أمانتك وهوكذاب[1].

ومع إصرار المنصور وتهرب النعمان جاءت تولى النعمان أمر المدينة بمثابة مخرج له من بطش المنصور، فتولى النعمان القيام بأمر المدينة، وضرب اللبن، وأخذ الرجال بالعمل، فتولى ذلك حتى فرغوا من استتمام حائط المدينة مما يلى الخندق، لكن المنصور لم يقنع بهذا الأمر فأرسل إليه بجائزة عشرة آلاف درهم. وجارية، وكان عبد الملك بن حمد وزير المنصور رجل كريم حسن الخلق فعندما رفضها النعمان قال له:

"أنشدك الله إن أمير المؤمنين يطلب عليك علة فإن لم تقبل صدق على نفسك ما ظن بك، فأبى عليه، فقال: أما المال فقد أثبته في الجوائز، أما الجارية فاقبلها أنت منى، اوقل عذرك، حتى أعذرك عند أمير المؤمنين، فقال أبوحنيفة: "إني ضعفت عن النساء- أى كبرت- فلا أستحل أن أقبل جارية لا أصل إليها، ولا أجترئ أن أبيع جارية خرجت من ملك أمير المؤمنين".

لكن المنصور تمادى في إصراره فأرسلها إلى النعمان مرة أخرى فجاءوا بها إلى المسجد فسكت النعمان وأومأ إليهم أننى لا أقدر على الكلام وأشار إليهم أن ضعوها في خزانة المسجد فوضعوها فلم تزل هناك إلى أن مات أبوحنيفة وكان

---

(١) ابن حجر في كتابه " الخيرات الحسان في مناقب الإمام الأعظم أبى حنيفة النعمان " ، صـ ٨٦ ، كذلك الخطيب البغدادى في كتابه " تاريخ بغداد " ١٣/٣٢٨.

ابنه حماد غائباً فلما قدم بعد موته حمل الدراهم إلى باب الحسن بن قحطبة وقال للبواب: قل للحسن حماد على الباب فأذن له فلما دخل عليه قال: إنى وجدت في وصية أبي إذا أنا مت فخذ هذه الدراهم واذهب بها إلى الحسن وقل: "هذه وديعتك التى كانت عندنا فنظر إليها الحسن فبكى وقال: "يرحم الله أباك قد شح بدينه إذا سمحت به أنفس القوم"حاول المنصور إستقطاب كبار العلماء وعلى رأسهم النعمان سواء بالمناصب أوالهدايا لكن جميع محاولاته قابلت الفشل ولزمت صحبته، فجميع محاولاته الناعمة لاقت صلابة من العلماء في زمن تسابق العلماء في القسوة على الحكام.

فبينما يجلس مكحول في مجلسه وحوله طلابه أقبل: يزيد بن عبد الملك. في زينته وجاء إلى الحلقة فأراد الطلاب أن يوسعوا له، فقال مكحول: دعوه يتعلم التواضع وجاء الخليفة: سليمان بن عبد الملك يوماً إلى طاوس، فلم ينظر إليه فقيل له: لماذا لم تنظر إليه؟ فقال: أردت أن يعلم أن لله رجالاً يزهدون فيما لديه وروى أن المنصور قال يوماً لطاوس: ناولنى الدواة فأمسك ساعة ثم قال: يا طاوس ناولنى هذه الدواة فأمسك عنه.

فقال المنصور: ما يمنعك أن تناولينها؟

فقال طاوس: أخشى أن تكتب بها معصية فأكون شريكك فيها، فلما سمع المنصور ذلك قال: قوما عنى.

قال طاوس: ذلك ما نبغي منذ اليوم.

فللباطل نعرة لا يصمها إلا نُضَّار أهل الحق، فالظالمون لا يفرحون بشيء كفرحهم بالعقول منعدمة التفكير التى تكتفي بتصديق ما يقال لها.

فالحاكم المتجلبب بالغي[١] والمتلفع بالحُطمية[٢] والسائر خلف الجحافل لابد له مهما كانت قوة جيشه من شعب جاهل وأقوام يتوارثون الحياكة[٣] وعقول لا تعي ولا تدرى إلا بما يملأ فى ذهنها وما يُطلى به فكرها، فالجهال هم وقود الظلم ومجرى الحماقة تراهم لا يدرون ولا يدرون أنهم لا يدرون يجلسون بجوار العلماء وكأنهم سنين في مدرة [٤] وندين في جلسة وجليسين بين معضلة، إذا تكلم العالم جادله الجاهل وإذا جهل الجاهل سأل العالم فلا يقر بجهله ولا يصغى إذا منّ عليه بعلمه.

تفادى المنصور خطأ معاوية. عندما أمر بقتل: حجر بن عدى فاحتكم إلى دهائه وألتف خلف حيله، فعندما عظم قدر: جعفر الصادق بين الناس وأصبح علمه حديث الدجى [٥] والغلس [٦] وخشى المنصور أن يصبح مصدر قوة للعلويين ويزيد من صلابة شوكتهم قال المنصور لأبي حنيفة: "يا أبا حنيفة إن الناس قد فتنوا بجعفر بن محمد، فهيئ له من المسائل

---

(١) الغى : الضلال فى قوله تعالى ﴿ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

(٢) الحُطمية: الدرع الحصينة والمقصود بها هنا : الحاكم الذى يحتمى بالحرس .

(٣) الحياكة: المقصود بها هنا : الحماقة.

(٤) سنين في مدرة : مثال عربي قديم يطلق على الذين يتساوون في الجلسة والمكانة.

(٥) الدجى: الظلمة، والمقصود هنا المساء.

(٦) الغلس: بداية ضوء الصباح مختلطة بظلمة الليل.

الشداد"فهيأ له النعمان أربعين مسألة، وإن أبا حنيفة يصف دخوله على جعفر بن محمد بالحيرة فيقول:

"أتيته فدخلت عليه، وجعفر بن محمد جالس عن يمينه، فلما بصرت به دخلتنى من الهيبة لجعفر بن محمد الصادق ما لم يدخلنى لأبى جعفر، فسلمت عليه، وأومأ فجلست، ثم التفت إليه، فقال: يا أبا عبد الله هذا أبوحنيفة؟ فقال: نعم ثم التفت إلى، فقال: يا أبا حنيفة ألقى على أبي عبد الله من مسائلك، فجعلت ألقي عليه، فيجيبنى، فيقول: أنتم تقولون كذا، وأهل المدينة يقولون كذا، ونحن نقول كذا، فربما تابعنا وربما تابعهم، وربما خالفنا، حتى أتيت على الأربعين مسألة، ثم قال أبوحنيفة: إن أعلم الناس أعلمهم باختلاف الناس.

خطط المنصور لإسكات قوة جعفر الصادق بأبي حنيفة، ولما بدأت الحياة تتعكر بين أبى حنيفة والمنصور وثارت نيران السخيمة إلى أعلى درجات الفوران [1] بينهما، بدأ أبوجعفر يتكىء على قوة الحيلة معتمداً على أعيرج الدهاء الذى كان ينبت له خيفة في كل حائط قد وصدت أحجاره، فدخل عليه إمام دار الهجرة: مالك بن أنس يوماً فقال له: يا أبا عبد الله إنى رأيت أنى أجلسك فى هذا البيت فتكون من عمار بيت الله الحرام وأحمل الناس على

(١) الفوارن: الغليان. في قوله تعالى ﴿ وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ ﴾ [هود: ٤٠]

علمك، وأعهد إلى أهل الأمصار يوفدون إليك وفدهم، لتحملهم من أمر دينهم على الصواب والحق".

فقال مالك: يا أمير المؤمنين إن أهل العراق قد قالوا قولاً تعدوا فيه طورهم، فإن رأى أمير المؤمنين إقرارهم على حالهم فليفعل، فأعفني فأعفاه.

أراد أبوجعفر إخماد الفقه الحنفي بعلم مالك محاطاً بحد السيف فيفقد النعمان نفوذه المبسوط على القلوب ليرتاح المنصور من ضجيج الثورة الذى طارده بها النعمان معتمدا على قوة حجته، لكن تشاء قدرة الأقدار أن تلك الدولة التى كان أبوحنيفة يعاديها ويألب القوم ضدها تنشر مذهبه، ويرحج ابن حزم هذا الأمر إلى أبي يوسف القاضي

وهو بهذا الرأى يوضح واقع لا ينجلى عن عين حصيف[1] فالهزيمة ليست فرة بعدها كرة لكن الهزيمة سقوط ليس بعده قيام فمتابعة الهيضة[2] بهيضة لا يعني الموت، وخسارة جولة في معركة لا يعنى النهاية، دنيا عجيبة وعجبها دنيا، فلوأن كل جهد يبذله المرء يرى نتائجه ظاهرة لهدأت العقول، ولكن مالك الملك له الظواهر والبواطن فيقدر فى ملكه كيفما يشاء فيبدي أموراً ويُخفي أخرى، ويقدر أمور لمقادير أخرى، قد ترى أمرًا فيه شر لك ثم بعد فترة تجد فيه خيراً كثيراً وقد ترى أمرًا فيه خير ثم تدرك أن بعده شراً كبيراً، فلولا هذا

---

(١) حصيف: حكيم.

(٢) الهيضة : مرض يتبعه مرض.

الإدراك لما عرف الطلاق، لوعلم شخص أن زواجه سيجلب له التعاسة لبدل اختياره منذ البداية.

ففى عهد المنصور توفى النعمان فحرمه القدر من لقاء عصر خلافة الرشيد فيبقى السؤال عن كيفية تصرف النعمان لوأنه عاهد الرشيد، فالرشيد كانت تفج منه علامات الإيمان ويضئ وجهه علماً، يرحب العلماء ويدعوهم إلى كل مناسبة ليتلصص سماع المواعظ، قد وعظه الشافعى فبكى، ووعظه ابن سماك فبكى، ووعظه على بن مسهر فبكى، خُفاف [1] قلبه ساد الإسلام بعهده العالم ودفع الروم له الجزية، قيل أنه كان يصلي مائة ركعة في اليوم الواحد ويغزوعاماً ويحج الآخر وفد عليه: أبومعاوية. وقد كان ضرير فأكل بين يديه ثم قام وصب الرشيد الماء على يديه حتى غسلهما.

فقال الرشيد: أتدري من يصب الماء عليك؟

قال أبومعاوية: لا

قال الرشيد: أمير المؤمنين. يقصد نفسه.

قال أبومعاوية: اكرمك الله كما أكرمت العلم ورفع درجتك يا أمير المؤمنين في الآخرة[2].

لزم الرشيد صحبة العلماء وسخر أذنه لنصائحهم فسخر الله له الدنيا.

---

(١) خفاف: متوقد القلب ذكى.

(٢) ذكره السيوطي في كتابه "تاريخ الخلفاء" فصل خلافة هارون الرشيد.

جلس الكسائى يوماً يداعبه فدخل عليهما أبويوسف القاضى فقال الكسائى للرشيد: هذا الكوفي قد استفرغك وغلب عليك. ثم أقبل الكسائى على أبي يوسف يقول: يا أبا يوسف هل لك في مسألة؟

فقال أبويوسف: نحوأم فقه؟

قال الكسائي: بل فقه .

فضحك الرشيد حتى فحص برجله

لقد كان أمير المؤمنين: هارون الرشيد على قناعة تامة بأبي يوسف القاضي فضحك حتى غصت القهقهة من أحشائه لتتنفس بأطرافه فجخا[1] الأرض بقدمه لمجرد رؤيته لشخص يعتقد قدرته على إعجاز أبي يوسف في الفقه، وإذا كان صنع أبي يوسف بالرشيد بلغ إلى هذا الحد فما قولكم بأبي حنيفة نفسه، وهل كان النعمان سيلين للرشيد أم يلقاه بالجفا كما لاقى المنصور.

(١) جخا: الشئ : أى ركله بقدمه.

علمه

الأحناف يرون إن النية في الوضوء سنة مؤكدة وليس فرض حيث أن الوضوء ليس مقصودًا ذاته لكنه وسيلة لشيء آخر هوالصلاة، ومسح ربع الرأس عندهم فرض والباقي سنة، ومس الرجل ذكره لا يفقده وضوءه بعكس الشافعي ومالك .كماأنه يرى بأن مس المرأة الأجنبية لا يفقد الوضوء بعكس الشافعي حتى وأن خالطته الشهوة بعكس مالك، وأن الترتيب والموالاة في الوضوء ليس فرض، وأن المعذور يجب عليه أن يجدد وضوءه لكل وقت، وأن النية في الغسل سنة أيضا، وأن المتيمم يجوز له أن يصلي ماشاء بعكس الشافعي ومالك كمايجوز له التيمم قبل دخول وقت الصلاة وهومالا يجيزه الشافعية ولا المالكية. وأقل مدة للحيض عنده ثلاث أيام وأن المني نجس يجب غسل الملابس منه بعكس الشافعي الذي لا يرى نجاسة المني.

وعند الأحناف الأرض تطهر بصب الماء الكثير عليها وبجفافها كذلك كمايرى أن ختان الرجال والاناث سنة، ولا يرى مايراه الشافعي ومالك من حد تارك الصلاة بأن يمهل ثلاثة أيام لكي يصلي وإلا قتله لكنه يرى حبسه وضربه حتى يصلي.

الأذان عند أبي حنيفة

تربيع التكبير وتثنية باقيه عدا لا اله الا الله فانها تقال مرة واحدة

ويرى الأحناف أن اتخاذ السترة للمصلي سنة سواء كان إمام أومنفرد إذا خشى مرور أحد أمامه وتنعقد الجماعة في مذهبه باثنين كماأنها تدرك ولوبادراك التشهد الأخير فقط

وقال أبوحنيفة: إذا صلى الأمي بقوم يقرأون وبقوم أميين فصلاتهم كلهم فاسدة.

وصلاة القصر عنده فرض في السفر، وقدر المسافة التي تقصر فيها الصلاة بسير ثلاثة أيام. وإذا نوى المسافر الاقامة يقصر في مدة قدرها خمسة عشر يومًا وأن صلاة الجمعة على المسافر سفر يوجب القصر لا تجب وتصح في أي مكان كمايمكن أن تنعقد بثلاثة غير الامام.

والوتر عنده يصلي في أي وقت بالليل ولا يصلى بالنهار

وصلاة العيد عند الأحناف تجرى بثلاث تكبيرات في الركعة الأولى بعد تكبيرة الاحرام، وفي الثانية ثلاثا بعد القراءة.

وصلاة الكسوف عنده تصلى ركعتين تطال فيهما القراءة وصلاة التراويح عنده عشرون ركعة دون الوتر، وتحية المسجد في مذهبه لا تصلى في أوقات النهي ولا تصلى لمن أتى المسجد والامام على المنبر وذهب مذهبه الى كراهة الصلاة بالمقابر.

وقال الأحناف بصحة الصلاة فوق الكعبة مع الكراهية، وسجود السهو عند أبي حنيفة يكون بعد السلام دائما بعكس الشافعي الذي يرى أنه قبل السلام دائما. واتفقا أن ترك سجود السهو لا يبطل الصلاة وترتيب الصلوات عنده واجب في قضائها.

وذهب أبوحنيفة الى أنه إذا صلى المسلمون المغرب صلاة الخوف يصلي الامام بالطائفة الأولى ركعتين والطائفة الثانية ركعة وكل يتم صلاته.

والقنوت بالوتر عنده في جميع أيام السنة بعكس الشافعي الذي يراه في النصف الأخير من شهر رمضان. ويرى أبوحنيفة أن الوتر لا يصح بركعة واحدة الا اذا سبقها اثنان.

وصلاة العيد عنده تقضى في اليوم الثاني أوالثالث بوقتها سواء تركت بعذر أوبدون عذر. والتنحنح والنفخ والأنين يبطلوا الصلاة عنده، ولا يجوز للمسلم عنده غسل، وتكفين الكافر كمالا يجوز للزوج المسلم تغسيل زوجته الذمية، وعند أبي حنيفة يجوز التيمم في وجود الماء لادراك صلاة الجنازة، وصلاة الجنازة عنده لا تقرأ بها الفاتحة ولا آيات من القرآن وانما حمد الله وثناء عليه وكذلك الصلاة علي النبي فيها سنة

الامام عنده يقف عند صدر الميت سواء كان رجل أم أمرأة، وأحقية الامامة عنده الوصي ثم الأمير ثم الأب وان علا ثم الابن وان نزل، ولا تصح صلاة الجنازة علي الغائب عنده حيث يرى أن صلاة النبي على النجاشي وزيد بن حارثة خصوصية للنبي فقط

ويكره عندهم نقل الميت من بلد الى أخرى، والزكاة عنده حق لله أي لا يجوز إخراجها للميت إذا لم يوصي بذلك وانها تجب على كل ما تخرجه الأرض في موعد ظهور الثمر وخروج الزرع

كما أنه يحرم أن تعطي المرأة زكاتها الى زوجها، وأبوحنيفة وحده أجاز اخراج قيمة زكاة الفطر مال بدلا عن القمح أوالشعير أوالتمر

وأبوحنيفة وحده أجاز أخراج زكاة الفطر قبل شهر رمضان ولو بسنين كما أن الأضحية عنده تذبح في يوم العيد أواليومين الذين بعده

يقول الأحناف أن المسافر أثناء شهر رمضان لا يفطر حتى يغادر مساكن البلد التي خرج منها مسافرًا ويظل مفطرًا حتى يرجع بلده إذا لم يكن قد نوى الاقامة أكثر من خمسة عشر يوما

وكذلك قال الأحناف بجواز أخراج كفارة الصوم في صورة مال، وذهب الأحناف الى جواز اعتكاف المرأة في مسجد بيتها، وذهب أبوحنيفة بوجوب الحج على الفور

كما يرى أبوحنيفة إلى عدم اشتراط النصاب في زكاة الزروع والثمار وأوجبها في كل مايخرج من الأرض قل أوكثر بعكس الشافعي الذي أوجب النصاب خمسة أوسق، كمااتجه أبوحنيفة في مذهبه بوجوب الزكاة في كل ماانبتته الأرض لا فرق بين خضروات وغيرها

الزواج

يرى الأحناف إن للخاطب الحق في استرداد ماوهب ان كان قائما على حاله لم يتغير كالخاتم والاسورة

قال أبوحنيفة: بجواز أن تزوج المرأة نفسها بغير إذن وليها لكن يعقوب اشترط إذن وليها.

يقول النعمان: تقبل شهادة الكافر عند زواج مسلم بكتابية للضرورة

يرى أبوحنيفة جواز شهادة الفاسق على عقد النكاح وجواز شهادة رجل وأمرأتين كسائر العقود المالية بعكس الشافعي الذي لا يجيز شهادة الفاسق أوولايته

يرى الأحناف إن المهر ليس ركنًا في الزواج ، ويجب عندهم المهر كله بالخلوة الصحيحة، يقول أبوحنيفة في زيادة المهر بعد العقد :"إن زاد الزوج في مهر زوجته ثبتت لها هذه الزيادة ان دخل بها أومات عنها قبل الدخول"

يقول أبويوسف عن مهر السر الذي يخالف مهر العلانية أن القاضي يحكم بمااتفقا عليه سرًا لأنه يمثل الارادة الحقيقية للعاقدين

يقول أبوحنيفة: يحكم القاضي بمهر العلانية الذي سجل في العقد وشهد عليه الشاهدان لأن الحكم يتبع الظاهر أما ماكان سرًا فعلمه الى الله

يرى أبوحنيفة عدم جواز زواج البكر دون أذنها بعكس الشافعي

يقول د/محمد بكر اسماعيل:"إن البكر البالغة العاقلة الرشيدة لا يتصرف أبوها في أقل شيء من ملكها إلا برضاها ولا يجبرها على اخراج اليسير منه بدون رضاها فكيف يجوز أن يرقها ويخرج بضعها منها بغير رضاها"

عند أبي حنيفة اذا وكل رجل ليختار له زوجة ومهر محدد فالعقد صحيح مهما كان الاختيار. وعند الأحناف يكون الرضاع الذي يثبت به التحريم بمجرد وصول لبن المرضع الى حلق الطفل ولوعن طريق الأنف كما يثبت الرضاع عندهم بشهادة رجلان أورجل وأمرأتين .

يرى أبوحنيفة صحة نكاح الشغار بشرط أن يدفع كل زوج مهر لزوجته مثل الأخرى ، وترتيب الصلاة عنده فرض بمعنى أن صلاة المغرب جماعة ثم أن تصلي العصر يجب إعادة صلاة المغرب عنده

عند أبي حنيفة عدم صحة صلاة الرجال بحذاء أمرأة

يرى الأحناف جواز أعتكاف المرأة بمسجد بيتها

عند أبي حنيفة يجوز للرجل أن يمس فرج زوجته أثناء الجماع

عند أبي حنيفة طلاق المكره يقع وطلاق المخطيء يقع عنده قضاء لا ديانة
يقول أبوحنيفة وأصحابه في المباح للزوج أن يطلع عليه من مطلقته أثناء العدة بأنه لا بأس أن تتزين المطلقة الرجعية لزوجها وتتطيب وتلبس الحلى ولا يدخل عليها إلا أن تعلم بدخوله حتى تستر مالا يباح له النظر اليه، والثلاثة قروء عنده هي الحيض بعكس الشافعي الذي يرى أنها الطهر
يرى الأحناف أن المطلقة طلاق رجعي لها السكن والنفقة
يقول أبوحنيفة عن الرجل يضر بأمرأته حتى تطلب الخلع فتتنازل عن حقوقها أن فسخ العقد صحيح لكن فاعله آثم عاص الله
يقول أبوحنيفةعن الطلاق الناتج عن الايلاء بانه طلاق بائن وفي حالة الطلاق بعد الايلاء يرى أبوحنيفة بأنه طلاق بائن، كمايرى بأن الظهار غير مختص بالأم لكن يقاس عليه الأخت والعمة وسائر المحرمات. يرى أبوحنيفة بأن الرجل إذا نكص عن الملاعنة بعد أن أدعى الزنى لزوجته فيحبس حتى يلاعن أويكذب نفسه، فان كذب نفسه وجب عليه حد القذف
يرى أبوحنيفة أن للمرأة سكن ونفقة في حالة التفريق بين المتلاعنين وذلك لأنه يعتبر التفريق باللعان طلاقًا لا فسخًا فيكون لها مثل ماللمطلقات من السكنى والنفقة
ذهب أبوحنيفة الى القول بنجاسة القيء لانه استحال من طعام الى شيء آخر مثله كمثل الطعام الذي استحال الى فضلات
يرى أبوحنيفة ان الختان سنة عند الرجال والنساء

مذهب أبوحنيفة في الأذان

تربيع التكبير في أول الأذان وتثنية الشهادتين وباقي كلمات الأذان ماعدا لا اله الا الله فانها تقال مرة واحدة ؛واحتجوا بعمل أهل الكوفة. كمايرى الأحناف أن الاقامة كالأذان في تربيع التكبير وتثنية الشهادتين، وحي على الصلاة، وحي على الفلاح ، وقد قامت الصلاة، والتكبير الأخير، ويستحب أن يقول المسلم مثل مايقول المقيم إلا عند قوله "حي على الصلاة حي على الفلاح"فانه يقول :لا حول ولا قوة الا بالله. وعند قوله: "قد قامت الصلاة"يقول :أقامها الله وأدامها عند الأحناف تكون الصلاة على النبي عقب التشهد الأخير سنة كماهوحال التشهد الأول وكذلك يرى المالكية وجمهور الحنابلة

يرى الأحناف أن اتخاذ السترة للمصلي يسن اذا خشى مرور أحد أمامه بعكس الشافعية الذين يتخذونها سنة مطلقا

يقول أبوحنيفة عن امامة الأمي :"اذا صلى الأمي بقوم يقرأون القرآن وبقوم أميين فصلاتهم كلهم فاسدة"وخالفه أبويوسف فقال:"صلاة الامام، ومن لا يقرأ تامة"

مسافة قصر الصلاة عند الحنفية تقدر بثلاثة أيام أولياال من أقصر أيام السنة، سيرًا معتادًا .وكذلك يرى الحنفية أنه لا تقصر الصلاة ان نوى الاقامة خمسة عشر يوما فأكثر. ومكان الجمعة عند الحنفية تصح في أي مكان يجتمع فيه المسلمون بعكس الشافعية والمالكية حيث لا تصح الجمعة الا في المسجد الجامع ويرى الحنفية أن الجمعة تنعقد بثلاثة غير الامام حيث أقل العدد ثلاثة، ولم يعدوا الامام ولم يعدوا الامام واحدا من الثلاثة لأنه هوالذي يخطب ويعظ

اعتمد أبوحنيفة وتلاميذه على فعل ابن مسعود في التكبير في صلاة العيد فيرى أن التكبير في صلاة العيد يكون ثلاث تكبيرات بعد تكبيرة الاحرام، وفي الثانية ثلاثا بعد القراءة. ويرى الحنفية ان صلاة الكسوف والخسوف تصلى ركعتين كسائر النوافل الا انه ينبغي فيها تطويل القراءة والركوع والسجود

قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾ ﴾ [التوبة: ٦٠]

الفقير :هوالذي لا يملك قوت يومه، أما المسكين هوالذي لا يملك قوت عامه، والعاملون عليها: هم الذين يوظفهم الحاكم لجمعها وتوزيعها، والمؤلفة قلوبهم هم الذين يرجى ائتلاف قلوبهم بالمال ويرى الأحناف بمنع اعطاءهم الزكاة مطلقا حيث استدلوا بفعل عمر بن الخطاب ﷺ ، وفي الرقاب: هم الذين تصرف الزكاة عليهم لتخليصهم من الرق أوالأسر، والغارمين: هم الذين عليهم دين اقترضوه من مسلم أوكافر لسد حاجة من حوائجه، في سبيل الله: يتناول وجوه البر كلها كتجهيز جيش يقاتل في سبيل الله وغيره، وابن السبيل: المسافر الذي ابتعد عن بلده وفارق أهله وماله. روى عن أبي حنيفة :"انه لا يجوز للزوجة ان تدفع زكاتها الى زوجها ولوكانت مطلقة منه طلاق رجعي أوبائن مادامت في العدة"وخالفه أبويوسف فقال:"يجوز للمرأة دفع زكاتها الى زوجها الفقير"

أما عن الخطأ في مصرف الزكاة فيقول أبوحنيفة :"لوأخطأ المصرف بعد التحري فدفعها لمن لا يستحقها صحت وقبلت ان شاء الله"وخالفه أبويوسف

القاضي فقال :"لودفع المزكى بعد التحري زكاته الى من ظنه فقيرًا فبان انه غني أوهاشمي أوذمي أوأصله أوفرعه لا يجزئه مادفعه عن زكاته لظهور الخطأ ويتعين عليه الاعادة"أما زكاة الفطر عند أبي حنيفة فيشترط لها النصاب وتجب عندهم بغروب شمس آخر يوم من رمضان. يقول الحنفيون :يجوز تقديمها عن شهر رمضان ولوبسنين، كماجوز أبوحنيفة وأصحابه اخراج قيمة الصاع من القمح ونحوه نقودا

صيام رمضان

الصوم: الامساك عن الشيء بما يعني الامساك عن الطعام والشراب

ينقسم الى: صوم مفروض: هوشهر رمضان المعظم

صوم مسنون :ماسوى شهر رمضان من سائر أيام السنة الا يوم عيد الفطر ويوم عيد الأضحى وأيام التشريق

والنية فرض في الصيام

يقول الاحناف: لا يلزم تبييت النية قبل الفجر في كل صوم معين، كشهر رمضان ،وكالنذر المعين الذي عين صاحبه فيه اليوم، ولا يلزم تبييتها قبل الفجر في النوافل، أما الصوم الذي ليس له وقت معين كالقضاء وصيام الكفارات والصيام المنذور الذي لم يؤقت بوقت معين فلابد فيه من تبييت النية قبل الفجر.

أما عن الافطار فيرى الأحناف تعجيل صلاة المغرب بعد الافطار على التمر والماء وتقديمها على الطعام ،أما عن كفارة الصوم كرجل واقع زوجته في شهر رمضان فيجوز الأحناف اخراج قيمة الطعام لستين مسكينا نقودا وكذلك

يرى الأحناف أن تناول الغذاء أوالدواء وكل مافيه نفع للبدن ويميل اليه الطبع وتنقضي به شهوة البطن عمدًا من غير نسيان ولا اكراه يوجب القضاء والكفارة.

وعند أبوحنيفة وأصحابه يفطر المسافر اذا نوى الاقامة أقل من خمسة عشر يوما بموضع واحد

الزواج

يرى الأحناف إنه في حالة عدول الخاطب عن خطبته يحق له استرداد ماوهب ان كان قائما على حاله لم يتغير كالاسورة، وان لم يكن قائما على حالته بأن فقد أوبيع فليس للخاطب حق في استرداد ماأهداه أواسترداد بدل منه

أركان الزواج

العاقدان: يشترط فيهما العقل والتمييز

الايجاب والقبول: يكون من قبل الزوجة أوولها

اذن الولي: جوز الأحناف للمرأة أن تزوج نفسها بغير اذن ولها خلاف للشافعية والحنابلة

يقول أبوحنيفة :لها أن تزوج نفسها وغيرها وتوكل في النكاح

الاشهاد: ركن من أركان الزواج ولا تصح شهادتهم الا معًا عند عقدة النكاح ويشترط فيهم الاسلام (فلا تصح شهادة كافر لكن جوز الأحناف شهادته بزواج المسلم بكتابية عند الضرورة)والعقل(فلا تجوز شهادة المجنون)، والبلوغ(فلا تجوز شهادة الصبي، ولا تقبل شهادة النساء لكن ابا حنيفة وأصحابه ذهبوا

الي جواز شهادة رجل وأمرأتين قياسًا علي العقود المالية)، والمهر (رغم أن كثير من الفقهاء ذهبوا الى عدم صحة العقد الا بالمهر فان أباجنيفة وأصحابه قالوا: المهر ليس ركنًا ولا شرطًا في عقد الزواج لكنه واجب مستقل بذاته يثبت للمرأة بالدخول عليها أما عن الكفاءة بين الزوحيبن كون الرجل كفءللمرأة أوالعكس

يقول أبوحنيفة: هي النسب والدين

أما عن المحرمات بسبب الرضاع فهوماحرم بسبب النسب ويثبت التحريم عند الأحناف بوصول لبن المرضع الى حلق الطفل ولوبطريقة الأنف مهما قل مقداره أخذًا من إطلاق لفظ الرضاع فهو عام يشمل القليل والكثير ويثبت التحريم عندهم بشهادة رجلين أورجل أوأمرأتين أما عن نكاح الشغار فقد ذهب أبوحنيفة الى انه يقع صحيحًا ويجب على كل واحدة من البنتين مهر مثلها على زوجها اذ ان الرجلين سميا مالا تصلح تسميته مهراً، إذ جعل المرأة مقابل المرأة ليس بمال ينتفع به، والفساد فيه من قبل المهر، وهو لا يوجب فساد العقل.

الطلاق

فمنه السني: أن يطلق الرجل امرأته وهي طاهر بطهر لم يجامعها فيه

والبدعي : والطلاق البدعي هوأن يطلق الرجل أمرأته وهوحائض أوبطهر جامعها فيه

أنواعه

طلاق المكره:يقع عند أبي حنيفة وأصحابه خلافًا للمالكية

طلاق السكران: لا يقع لعدم حضور العقل أثناء الفعل

طلاق الغضبان: يقع إلا اذا أشتد الغضب فبلغ بالعقل الى الزوال فلا يقع

طلاق الهازل: يقع طلاقه

طلاق المخطيء: هوالذي لم يرد الطلاق لكن لسانه نطقها خطأ فطلاقه عند أبي حنيفة يقع قضاء لا ديانة بمعنى انها لو رفعت أمرها للقاضي، وقالت: سمعته يطلقني، فأقر هو بذلك، وقال: سبق لساني بها ولم أرده حكم القاضي بوقوع طلاقه

والطلاق نوعان

طلاق رجعي: يكون فيه للرجل حق المراجعة اذا طلقها طلقه واحدة أواثنين وكانت لا تزال في عدتها أما مايباح للزوج وأصحابه: لا بأس أن تتزين المطلقة الرجعية لزوجها وتتطيب وتلبس الحلي وتبدي البنان والكحل.

وحكم الاشهاد في الطلاق والرجعة عندهم مستحب، وعدة المرأة المقصود بها قوله تعالى: ﴿ وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ ﴾ [البقرة: ٢٢٨] هي الحيض عند أبي حنيفة

ويرى الحنفية أن المعتدة لها السكن والنفقة خلافا للشافعي الذي يرى أن لها السكن فقط

الخلع

الخلع:نوع من أنواع المفارقة، وسمى خلع لأن المرأة تخلع نفسها من زوجها. روى البخاري عن ابن عباس ﷺ قال:"جاءت أمرأة ثابت بن قيس بن شماس الى رسول الله ﷺ فقالت:يا رسول الله ماأعتب عليه في خلق ولا دين ولكن أكره الكفر في الاسلام، قال رسول الله :"أتردين عليه حديقته ؟"قالت: نعم. فقال رسول الله صلي الله عليه وسلم :"اقبل حديقتها وطلقها تطليقة"

فالخلع وسيلة شرعها الله للمرأة حتى تخلص نفسها من الرجل أما عن عدة المختلعة فيرى جمهور الفقهاء أن عدة المختلعة كعدة المطلقة لكن خالفهم البعض فيرى أن عدتها طلقة واحدة

الصلوات الخمس

فرضت الصلاة ليلة الاسراء والمعراج، وروي مسلم عن جابر بن عبدالله أن رسول الله صلي الله عليه وسلم قال: "بين الرجل وبين الكفر ترك الصلاة"

ويري الاحناف إنه يجب علي الحاكم حبس وضرب تارك الصلاة حتي يصلي

شروط صحة الصلاة : الاسلام، الطهارة من الحدث الاصغر والاكبر، الطهارة من الخبث، دخول الوقت، استقبال القبلة

أركان الصلاة

النية، تكبيرة الاحرام، القيام لتكبيرة الاحرام، قراءة الفاتحة، الركوع، الرفع من الركوع، السجود، والجلوس بين السجدتين، الجلوس الأخير والتشهد فيه، الصلاة علي النبي عقب التشهد الاخير وهي سنة عند الأحناف، السلام، الطمأنينة والاعتدال في جميع الاركان، ترتيب الأركان

حكم اتخاذ السترة في الصلاة

فيري الأحناف إن اتخاذ السترة يسن للمصلي إذا خشي مرور أحد أمامه

صلاة القصر: فرض في السفر لا رخصة عند الأحناف وتقصير الصلاةعندهم في مسافة تقدر بثلاث أيام وليال سيرا معتادا، ومدة القصر عندهم خمسة عشر يوما

صلاة الجمعة

عند الأحناف لا تجب علي المسافر سفر قصر، ومكان انعقاد الجمعة عندهم تصح في أي مكان عكس الشافعية الذين لا تصلح الجمعة عندهم إلا بالمسجد الجامع

العدد الذي تنعقد به الجماعة

قال الحنفية: تنعقد الجمعة بثلاثة غير الامام وركن خطبة الجمعة عندهم الذكر الطويل المشتمل علي تحذير وتبشير

والوتر عند الاحناف لا يصح بواحدة لكن لابد أن يتقدمها ركعتان والقنوت في الوتر عندهم يسن في جميع أيام السنة

احكام الحج

يري أبوحنيفة بوجوبه علي الفور لكل من استطاع اليه سبيلا .

أما عن حواراته ومناقشاته فنذكر منها: إنه تجمهر جمع من الملاحدة الذين يؤمنون أن الكون مخلوق بالطبيعة وليس له رب، ويعلنون تمسكهم برأيهم، فناظرهم الإمام أبوحنيفة، فوجهوا إليه العديد من الأسئلة علي هذا النحو

السؤال الأول: وهومكون من مجموعة من تساؤلات: في أي سنة ولد ربك .؟

قال الإمام: الله لم يولد، ولا كان له أبوان وكتاب الله يقول ﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ ﴾ [الإخلاص: ٣]

في أي سنة ولد ربك.؟

الله موجود قبل الأزمنة والدهور "لا أول لوجوده "نريد ضرب أمثلة من الواقع توضح هذه الإجابة .؟

قال الإمام: ماذا قبل الاربعة في الأرقام الحسابية، قالوا:ثلاثة؟ قال: وماذا قبل الثلاثة؟ ،قالوا: اثنان، قال: وماذا قبل الاثنان؟ قالوا :واحد. قال: وماذا قبل الواحد؟ قالوا: لاشيء قبله، فقال لهم: إذا كان الواحد الحسابي لاشئ قبله، فما بالحكم بالواحد الحقيقي وهوالله ﷻ "إنه قديم لا أول لوجوده "

السؤال الثاني: في أي جهة يتجه ربك؟

قال الإمام: لوأحضرنا مصباحًا في مكان مظلم في أي جهة يتجه نوره؟ قالوا: في جميع الجهات

قال: إذا كان هذا حال النور الصناعي فما بالكم بنور السموات والارض

السؤال الثالث :عرفنا شيئا عن ذات ربك، أهي صلبة كالحديد ،أم سائلة كالماء ،أم غازية كالدخان والبخار

قال الإمام: هلا جلستم بجوار مريض مشرف علي الموت؟ قالوا: جلسنا

قال: كان يكلمكم فصار بعد الموت ساكتاً، وكان يتحرك فصار ساكناً، فما الذي غير حاله؟

قالوا: خروج روحه

قال: أخرجت وانتم موجودون معه.؟ قالوا: نعم

قال: صفوا لي هذه الروح هل هي صلبة كالحديد أم سائلة كالماء أم غازية كالدخان والبخار، قالوا: لانعرف شيئا عنها

قال: الروح - وهي مخلوقة - لا يمكنك الوصول إلي كنهها. أفتريدون مني أن أصف لكم الذات الإلهية؟ إن ذلك لعجيب

السؤال الرابع

في أي مكان ربك موجود؟ قال الامام: لوأحضرنا كوبًا محلوبًا بلبن محلوب الآن. فهل في هذا اللبن سمن؟ قالوا: نعم

قال: وأين يوجد السمن في اللبن؟ قالوا: ليس له مكان خاص، بل هوشائع في كل جزيئات اللبن. قال: إذا كان الشئ المخلوق وهوالسمن ليس له مكان خاص به، لبون أن يكون للذات الإلهية مكان دون مكان؟ إن ذاك لعجيب

السؤال الخامس

إذا كان كل الأمور مقدرة من قبل أن يخلق الكون فما صناعة ربك الأن؟

قال الإمام: أمور يبديها(يظهرها) ولا يبتديها، يرفع أقوما ويخفض آخرين

السؤال السادس

إذا كان لدخول الجنة أول فكيف لا يكون لها آخر ونهاية ؟

قال الإمام: الأرقام الحسابية لها أول وليس لها نهاية ولذلك فإن أهل الجنة خالدون فيها وليس لذلك نهاية

السؤال السابع

كيف نأكل في الجنة ولا نتبول فيها ولا نتغوط؟ قال الامام: أنا وأنت وكل مخلوق يمكث في بطن أمه تسعة أشهر يتغذي من دمها، ولا يتبول ولا يتغوط، فمن حيوان منوي لا يري الا بالمجهر إلي شخص يملأ يد القابلة أوالطبيب

السؤال الثامن

كيف يتأتي أن تزداد خيرات الجنة بالانفاق منها ولا يمكن أن تنفذ؟ قال الامام: خلق الله شيئا في الدنيا يزداد بالنفقة منه وهوالعلم، فكلما أنفقت منه زاد ولم ينقص

أسئلة رقم ٩و١٠ و١١

أرني ربك ما دام موجوداً. والشيطان مخلوق من النار، ويتعذب بالنار، فكيف تعذب النار النار؟ والشر والخير مقدران علي الانسان، فلم الثواب ولم العقاب ؟

قال الإمام: إن الأسئلة الثلاثة يحتاج الاجابة عنها إلي وسائل إيضاح

قالوا: هات ماشئت

قام وأحضر طوبة من الأرض، وهوي بها علي رأس زعيمهم بضربة مؤلمة. وسأل هل أحدثت هذه الضربة ألماً؟ قال الملحد: نعم

قال الامام: وأين يوجد الألم؟ قال الملحد: في الجرح

قال الإمام: أظهر لي الألم الموجود في الجرح، وسوف أظهر لك الرب الموجود في الطوبة، والطوبة من طين وأنت مخلوق من طين . فكيف عذب الطين الطين وضربك مقدر فلم أستغيث ليلحقوا بي العقاب .

وعند هذا الحد من الحوار أسلم كبير الملحدين ورفض الآخرين الإيمان .فقال أبوحنيفة

فيالك من آيات حق لو اهتدي بـهن الحـق كـن هـواديـا

ولكن عـلي تلك القلـوب أكـنة فليسا وان أصغت تجيب المناديا

وفي حوار له مع ملحد آخر

سأله رجل: هل رأيت ربك.؟

فقال: سبحان ربي لا تدركه الأبصار .

فقال الرجل: هل لمسته؟ هل شممته؟ هل ذقته؟

فقال الإمام: سبحان ربي (ليس كمثله شئ وهوالسميع البصير)

فقال الجاحد: إذا لم تكن رأيته ولا لمسته ولا شممته ولا سمعته فكيف ثبت أنه موجود ؟

فقال أبوحنيفة: يا هذا ... هل رأيت عقلك؟

قال: لا

قال الإمام: هل أحسست عقلك؟

فقال: لا

فقال الإمام أعاقل انت ام مجنون ؟

قال الجاحد: بل عاقل

قال أبوحنيفة: فأين عقلك .؟

قال الجاحد: موجود

قال الإمام أبوحنيفة: كذلك الله جل جلاله موجود

وفاتــه

توفي النعمان سنة ١٥٠ هـ بعد رحلة من العطاء والعمل الدؤوب لخدمة الإسلام التى لم يسلم خلالها من تسلط حكام بني أمية أوالمنصور وتطاول عليه الجهال فما زادوه إلا حلماً وما سعى لنصرة نفسه منهم لكن نصره التاريخ عليهم.

سحقاً للتاريخ إذا لم يسحق الجهال لينصر العلماء ولنجهل ذكره إذا ذكر الاثنين سيان، فالعظيم بريق يبرق في أعلى درجات الآفاق ليجبر الجميع على التلون بلونه والتطيب بطيبه بينما يبقى الجاهل كالآفة التى لا يجد من يقترب منها سوى التقزز ولا يصيب منها إلا الغثيان فهم سلاح المستبد ووقود الطالح فعندما حرصت الكنيسة قديماً على قتل العلماء أرادت إبقاء رعاياها بين ظلمات الجهل فتنهش لحومهم كما تشاء وتمضع أشلاءهم كما تحب.

اشتدت معاداة النعمان للمنصور حتى صارت قصص خصومتهم تملأ الآذان وكُشف عنها الغطاء، عن إبراهيم بن سويد يقول: "سألت أبا حنيفة، وكان لى مكرماً، أيام إبراهيم بن عبد الله بن حسن، فقلت: أيما أحب إليك بعد حجة الإسلام الخروج إلى هذا أم الحج؟ فقال: "غزوة بعد حجة الإسلام أفضل من خمسين حجة".

وجاءت إليه امرأة فقالت: "إن ابنى يريد هذا الرجل، وأنا أمنعه "قال: لا تمنعيه.

وذُكِر: محمد بن عبد الله. عنده يوماً فدمعت عيناه وطابت إلى الناس فكرة العالم الذى تحدى الخليفة فتناقلوا القصص وسردوا الإشاعات على لسانه ولسان تلاميذته فروى أن زفر قال: كان أبوحنيفة يجهر بالكلام أيام إبراهيم جهاراً شديداً. فقلت له: والله ما أنت بمنته حتى توضع الحبال في أعناقنا، قال: فلم يلبث أن جاء كتاب المنصور إلى عيسى بن موسى أن احمل أبا حنيفة، قال: فحمله إلى بغداد فعاش خمسة عشر يوماً". من المؤكد أن تلك الرواية أقرب إلى الأكاذيب فإبراهيم بن عبد الله. توفى عام ١٤٥ هـ بينما توفى النعمان بعده بخمس سنوات أمام رياح الهجوم التى شنها النعمان على المنصور كان لابد من استحضار دهائه والبحث عن مخرج لقصة صار الناس ينتظرون نهايتها ويفتشون عن النصر بين مواجهة لا يستطيع أحد الخصمين أن يواجه الآخر فكانت أشبه بمباراة المهزوم فيها ميت والفائز خاسر.

فعندما استدعى المندوب السامي الفرنسي في سورية الشيخ: عبد الحميد الجزائري وقال له: إما أن تقلع عن تلقين تلاميذك هذه الأفكار، وإلا أرسلت جنوداً لإغلاق المسجد الذي تنفث فيه هذه السموم ضدنا وإخماد أصواتك المنكرة، فأجاب الشيخ عبد الحميد: أيها المسيو الحاكم أنت لا تستطيع ذلك، فاستشاط المسيوغضباً وقال: كيف لا أستطيع؟

قال الشيخ: إذا كنت فى عرس علمت المحتفلين وإذا كنت في مأتم وعظت المعزين وإن جلست في قطار علمت المسافرين، وإن دخلت السجن أرشدت المسجونين وإن قتلتموني ألهبت مشاعر المواطنين، وخير لك أيها المسيو ألا تتعرض للأمة في دينها ولغتها.

فعندما تحبس عالم يتجمع الناس لإخراجه وإذا قتلته التصقت بك خطيئة قتله وتأجج الثوار وإذا تركته اظهر العيوب ونادى بالحق، فمثل تلك الأمور تضع الحاكم بين المقصلة والمعضلة فلذلك إستعان المنصور بدهائه الذى أعتاد صنع الفرج من قلب الكرب فبعدما حُمِلَ النعمان إلى بغداد توفى هناك ليترك أسئلة كثيرة وتعجب أكثر حول طريقة موته، وقيل أنه مات مسموماً. وأنا أرجح هذا الرأى، فالموت بالسم يعطي شكًا ولا يؤكد يقينًا فينجوالمنصور من تهمة قتل النعمان كما فعل بنوأمية في الخليفة العادل: عمر بن عبد العزيز. ولعل أحد الجنود أراد التقرب من المنصور بقتل النعمان فتطوع لهذا العمل دون موافقته كما فعل يحيى البرمكي مع الرشيد.

وما بين وفاة أواستشهاد النعمان نقول إن العالم الإسلامي شهد يوم أستحر فيه الهم الذى أدمع العيون لموت رجل كان ميلاده بداية ظهور فقه أدرع بمذهبه أهل العراق والشام ومصر وكذلك المسلمين بالهند. بينما بقيت جامعته تنمو بالكوفة لتتأرض بأرجائها، وبقى تلاميذته يفتون برأيه ويشيرون بفقهه ليشيعوا مذهبه بين الناس، وبقى تلميذه النجيب أبويوسف القاضي يترنح بين مناصب القضاة حتى اعتلى أعلاها وهومنصب قاضى القضاة، يعقوب عند الأحناف كالمزني عند الشافعية وابن فرات عن المالكية.

صلى على النعمان خمسون ألفًا وكذلك أكمل المنصور خدعته فصلى عليه أيضا وكان قد أوصى قبل موته بأن يدفن في جانب من المقبرة لم يجر فيه غصب دون الجانب الآخر، وعندما بلغ المنصور تلك الوصية قال: "من يعذرني من أبى حنيفة حياً أو ميتاً".

توارى التراب على جسد عاش يتبرأ من كل رجس فغابت الشمس لتظهر النجوم التى تضئ في غسق الدجا فلا تزيدهم النازلة إلا قوة، ولا تخاذل الآخرين إلا صلابة ،ولا ضعف من حولهم إلا إصرارًا على المضي، فإذا غسق الدجا طياته وشن كهبته بقى أصحابه كالكواكب تسرى لتحطم الركود وبقيت كتبه كإضبارة من العسجد.

فهرس

مقدمة ٥
صفاته ٩
اسمه ٢١
ولادته ٢٧
نشأته ٣٢
خلقه ٤٠
حلمه ٤٦
طلبه للعلم ٥١
بين يدى حماد ٥٧
علمه ٦٥
تجارتـه ٧٢
فقهه ٧٩

تلاميذه ١١٠
كرمه ١٣٦
أبوحنيفة والسلطة ١٤٥
علمه ١٦٧
وفاتـه ١٨٥